مرتفعات الأحلام

كريم مجدي

كتاب مرتفعات الأحلام

مجموعة قصص

تأليف كريم مجدي

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

كريم مجدي ٢٠٢١

رقم الإيداع:

الترقيم الدولي:

المحتويات:

١ – مرتفعات الأحلام	٤
٢ – الإمام الأكبر	٧٩
٣ – البر الغربي	٩٢
٤ – سويداء القلب	٩٩
٥ – عبد العزيز	١١٧
٦ – ذات يوم ربيعي	١٢٨
٧ – يوم آخر	١٣٧
٨ – الذكرى الأولى	١٤٩
٩ – مقهى النصر	١٦٣
١٠ – يوم صيفي حار	١٦٧
١١ – الحالمة	١٨٣
١٢ – وضحاها؟	١٨٧
١٣ – حلم الهجرة	١٩١
١٤ – الإثم	٢٠٠

(١)

مرتفعات الأحلام

تَخرَّجَ حاتمُ شرف الدين من الكليةِ الحربيةِ التي اختارتُه بعدَ موتِ أبيه، متخطيًا زملائِه إلى المرتبةِ الأُوَلى، حيَّاهُ الرئيسُ واضعًا وسامًا على صدرِهِ، وهو يشهدُ حفلَ تخرجِه، وكلَّفه بمهمتهِ الأولى.

كادتْ النُّجومُ المُعلَّقةُ فوقَ كَتفيه تلمعُ نظيفةً لولا اخْتياره لتلكَ المهمةِ وأربعة آخرين؛ لقوّتِهم التي أظهرتها التَّدريباتُ خلال فترةِ الدِّراسةِ، وأَرسلوا للخدمةِ في أرض سيناء السكيرةِ من سقياها بالدِّماءِ، ورذاذِ الخديعةِ.

وَقفَ حاتمُ قبل سفرِهِ عندَ قبرِ أبيه؛ كي يودعَه، مرتديًا الزي العسكري، قرأ له الفاتحةَ، ودعا له بالرّحمةِ، وأن يسكنَ الجنانَ، احتاج أنْ يركعَ عنده دهرًا؛ كي يشكوَ مرارةَ الأيامِ بعد وفاتهِ؛ ويسكبَ شكواه حتى تنضبَ أَحزَانه لفراقه، وقد كان يحملُ عنه همَّ الدُّنيا ونصبها، شعرَ بعد موتهِ بالغربةِ بين أناسٍ لا يَفْهمونه كما كان أبوه يفهمه، ويئنُّ حسرةً على فقده، كلَّما يُعْجُزه أمرٌ كانَ يسعي فيه من أجلِ سعادةِ ابنه.

أخذ يقتاتُ من قبةِ القبرِ راحته، وينبشُ عن بلسمٍ لغصتهِ، صار هذا القبرُ ملاذه المطمئن منذَ أودعَ فيه جثةَ أبيه، يعودُ إليه كلَّما تكاثرتْ جراحُه وأوجعه الفقدُ، أصبحتْ زيارته طقسًا مقدسًا، يؤديه كلَّ أسبوعٍ، يسكبُ حمله ثم يعود حرًا خفيفًا، يجهل إن كان يستطيع الاستمرار في تأديةِ هذا الطقس في المستقبل.

أراد أن يسردَ له كل التفاصيل، ثم آثر السكوتَ كمنعمٍ من كثرةِ الحديثِ، وباحَ له بسرِّ تخرجه من الكليةِ الحربيةِ.

غطَّى حاتمُ القبرَ العاري بغصنٍ أخضر يحملُ زهرةً بيضاء، وتركه وهو على شفا دمعةٍ، تلفَّت وراءه مرارًا، وهو يبتعدُ، وقبَّل ثنيات الوداع، وقف شاردَ الذّهنِ بين قبة القبر، وتذكر اجتماعَه الأخير بأبيه، ونظرة عينيه، ودفء يده، وحنانه وتدفقات حبه، ونوبات غضبه التي تمنّى عودةَ الزمنِ بها، وباشتياقهِ له أيام سفره، وعتبه لحظة المساءلة، وضمته الأخيرة له وهو على فراش الموت...

لم يكن الوقتُ كافيًا لحاتم؛ كي يودعَ خطيبته نوران، عليه المضي بغير تباطؤ حيث قدره وما يخبئه، ذهبت الأيامُ الوادعة والآمنة، وجاءت أيامٌ أخرى تحققُ أحلامَه بوطنٍ مصانٍ غير مهان، غير خائفٍ من غده.

لحق بالركبِ العسكري، والمفترض به الإقلاعِ بهم إلى مدينة العريش، ومن هناك سوف تتم عمليةُ توزيعهم على سكناتهم الجديدة، امتطوا الحافلةَ، ثلاثة عشر رجلًا أشداء، قلوبهم لا تعرفُ الخوفَ، تفيضُ بحبِّ مصر وكراهية

أعدائها، مستعدين للتضحية بأرواحهم الثمينة في سبيل مصر، يتمنون العيشَ في الدّفاعِ عنها، والموتِ من أجلِها.

عبروا مجرى قناة السويس من فوق كوبري السلام، لم يبتسموا لمياهها الزرقاء رغمَ جمالِ منظرِ المياه، شاهدوا المياه من بعيد وهي تعبر شقين متجاورين كأنهما توأم.

تجاوزوا كلَّ الحواجزِ الأمنيةِ المتناثرة على طريق القنطرة شرق العريش، عندَ مدخلِ العريشِ انحدروا شمالًا، ثم عرجوا مع الشمس غربًا، أول ما استقبلهم برجٌ عاجيٌّ، قابع فوق مكانٍ مرتفع صغير يشرفُ على البحرِ؛ ليصيدَ المعتدين إنْ قاموا بمهاجمة وحدتهم التي تتوسط التيه، يمتطيه جنديان للحراسة، بمدافعَ خفيفة متحفزة للقتال، رحبوا بهم بصمتٍ، فتجاوزهما الموكبُ بهدوء، دخلوا عالمَ العسكرية المصرية، الإيمان، والعزة، والكرامة، والولاء، إنّها شعارات محفورة على جدران قلوبهم، قبل أن توشمَ على الحوائطِ، وعلى اللوحاتِ الإرشاديةِ المشجوبةِ.

يُمْنَعُ التّنقلُ داخل الوحدة ليلًا بدون سبب، عليهم طرح أجسادهم المتعبة على أقرب أسرة، ويحلمون بوطنٍ آمنٍ يراوضُ خيالهم.

زارَ حاتمُ العراءَ متجاهلًا التحذيرات، تأملَ صفاءَ صيفَ سيناء، يحسُ أمواجَ البحر، ويشمُّ رائحةَ رذاذِ الماء، وفواح الملح، اختلطَ كلُّ هذا بدماءِ مدينةٍ لم تعرفْ السلامَ يومًا منذ فجر إنشائها، تعاقبَ عليها الغزاةُ عبر الأزمنة، لم ينههم أحدٌ عما استباحوه، ونهب خيرات المدينة، وتركها ذبيحةً تصارعُ من

أجل البقاء، كأنَّ هذا هو دورها الكامل الذي يجبُ عليها تقبله، أن تلد لتخطف أطفالها، وأن تنبت الزرع ليحصده الغرباء، كل ما فيها أصبح مباحًا، حتى البشر يُقْتَلُون لمبررات غير مفهومة بأيدٍ مجهولة، وأخرى غريبة تشجبها الأرضُ ومن عليها.

تأمّلَ كل ما يحيطه من جبالٍ مزروعةٍ، وبيوتٍ مرصوصة، وأنفاس حائرة لأناسٍ نيام، لا يعلمونَ ماذا سيحلُّ بهم صباحًا، أحزان تأتي بغتة، وتنتهي بتكاسلِ سلحفاة عرجاء، فيتذوقون طعم المرارة مضاعفًا، وسوف يعشون حتى يقصوا على أحفادهم ذكراها الموجعة، وأحفادهم يظنونها خيالًا ينعشون به عقولهم الخربة كي لا تعطب.

صعد حاتم أعلى كومة ركام، وتساءل هل هي بفعل البناء أم تفجير ما؟ جلس عليها، وقد أوغل الليل في الوحشة، خطرت له ذكرى أصدقائه القدامى، "خالد سعفان" الغائب وانقطاع الصلة بينهم.

أضاء الجزءَ المظلمَ في روح حاتم، فسطعت نجومٌ خافتةٌ عندما دارَ شريطُ ذاكرته، وتوقفَ عند نوران، والشوق يحرقه مرتين، مرة من أجل البعد، والثانية للرحيل بغير وداع، رغم توسلات نوران الكثيرة التي زفتها بنحيب مر، ولم يجبها رغمًا عنه، من ذا الذي يكرهُ أن يرتميَ في أحضان حبيبته؟ ويتمرغ كحمارٍ أجرب بها، ومن يكتم عَبْرَات حبيبته داخله ولا تحرقه؟ وتلهب جوفه تباريح هوي لا يُشْفَى إلا برحيقِ قلبها؟ مَنْ؟! مَنْ يبُغضُ ذلك؟ كادت عيناه

تمطر لولا تجلده بالصبر؛ ليقدرَ على تحملِ مسئوليته، لكنْ كيف يتحمل أوجاع وطنه، والعلاج غائب.

ارتحل بين طرقات الوحدةِ، لم يبتعدْ عن ثكنته، فهو مازال يجهل المكان، رأه جنديان في نوبةِ حراسةٍ فظنوه جنديًا هاربًا فاعترضوه، فكشفَ عن هويته، وسرعان ما صبوا العتبى على أنفسهمِ لمحاولة إيقافه، فاعتذَر حاتم لهم في جفاء، وقفل راجعًا.

النسمات التي يبثها البحر منعشة، تجعله ينتشي، وترطب حرارة الطقس وتسحقها كحشرةٍ ضئيلةٍ، علَّقَ آماله على مشجب الثكنة التي حبست النسمات في الخارج، فاختنق من قوة الحرارة والرطوبة؛ فتحَ النافذةَ الموصدة كي يتسللَ الهواء إلى الداخل، تأفف من وضعه الجديد، لكنه لم يتذمر؛ فقد علمته التدريبات مساوئ كل شيء؛ وأطعمته عيوبها كي يألفَ نكهتها ورائحتها، ويكتسبَ مناعة ضدها.

احتفى به زملاؤه السهارى ودعوه لمشاركتِهم، فاعتذرَ لهم وتعلَّلَ بأنه متعبٌ، ويريدُ الراحةَ، والتف حول نفسه فوق سرير، فابتلعه النوم على الفور.

قبلَ الفجرِ انسكبَ عليه ثقلٌ، رائحته كريهة اجتاحت شعيرات أنفه بفظاظة مثل جيش غاضب لا يجد مَنْ يتصدَّ له، انتفضَ من سريره وشاهد ظلال الجنود تحجب الأفق، ظن أن معتدين اقتحموا الوحدة، فنهض مستنفرًا، وسمع الأصوات من حوله تتهادى، مسح جفونَ عينيه فاتضحتْ له الصورةَ المشوشةَ

من أثرِ الجفونِ الرّاغبةِ بالنومِ، ووقع المفاجأة، فَهِمَ أنَّ ما سكبوه متبقيات فضلات بشرية.

تذمرَ الضباطُ مثل ثورٍ هائج يزمجر بغضب مكظوم، رأوا الخوف في عيون الجنودِ، وهي واقفة تحمل الدلاء، تحت أستار الظلام مثل أشباح ليل قلوبها تعوي من الوحشة؛ لم يحقد حاتم عليهم لأنهم حتما كلفوا بفعل ذلك، لكنه استنكف أن يستقبلوه في ليلته الأولى بفضلاتهم الآخذة بالتحلل، واكتناف القاذورات فوق رؤوسهم، والأرض أولى بها منه، تعكر صفو الجميع، لكن لم يجرؤ أحد على الاعتراض.

شعر الجنود بالإثمِ؛ لكساءِ ضباطهم الجدد بقاذوراتهم، وخاطبهم جندي بتأثرٍ حاثًا إياهم على عدمِ الغضب عليه، وأخبرهم بأنّه مأمور، لم يجبه أحد أو علّه لم يسمعه أحدٌ، أطبقَ حاتم عينيه بينما حاملو الدلاء ينسحبون إلى منازلهم، نادهم صوت من الخارج فلبوا النداء، واصطف الكل خارج الثكنة، لم يحتج.

تفحصهم العقيد حسين فاروق يتأكد من جاهزيتهم، شبك ذراعيه خلف ظهره، وفي إحدي يديه رصاصة يقلبّها بين أصابعه، وتحرك أمامهم ذهابًا وإيابًا.

خمد هياج القلوب وخفقانها؛ وحضرت العقول لسكب المزيدِ من تعليماتٍ ليليةٍ، أوقظوا حين غرة لتلقيها عنوة، اصطف الضباط جنبًا إلى جنب، فتلامَست أكتافهم لتعلن أنهم جسد واحد.

صدحَ فيهم صوتُ العقيدِ حسين قائدهم الجديد، بأنهم ليسوا في منطقةٍ عاديةٍ؛ كي يمرحوا فيها بغير حذرٍ، وبأنها منطقة ساخنة تغلي بأحقاد العناصر الإجرامية، وتعدُّ جبهة حرب، ثم أمرهم بالخلودِ إلى النومِ، ووعدهم بتدريباتٍ مكثفةٍ في الصباحِ الباكرِ، والمشاركةِ في طابورٍ ركضٍ، فتفرق الجميع قبل أن يدير ظهره لهم وينصرف.

زفر حاتمُ بعمقٍ ثمَّ تبعَ خطواتٍ مَنْ سبقوه، خلعَ قميصه القطنيّ، وهو يعبرُ الردهةَ الضيقةَ الموصلةَ إلى دوراتِ المياه، ركل الباب بقدمه لينفرجَ عن آخره، ويحتلَّ فرجته بجسدهِ الذي تضخم كثيرًا بعد امتطائه فرس الحربية، وتحدث باستياءٍ لا يعقل عما حدث معهم في أول ليلة، تابعه زملاؤه ببصرٍ زائغٍ وعيونٍ جامدةٍ، حاولوا معرفةَ إذا ما كان يخاطبهم أم يحدث نفسه، فقد تجاوزهم دون انتظار إجابة تكفيه همه، وتجنبه امتعاضه.

حكَّ جلده مرارًا بالماء والصابون؛ حتى اقتنع بخلوه من الأوساخ ورواسبها، وباتتْ الرائحةُ تطارده أينما حلَّ، وتفاوضه على سكينتهِ، فتشَ عن قارورة عطر يسكبها عليه؛ ليخلص روحه من تلك الرائحة، فلم يجدْ فاكتفى بمتبقيات عبق الصابون الذي استخدمه، لتمحو مصدر رائحة أوساخ لم يَعُدْ لها وجود إلا في مخيلته.

مع وفود الصباح أيقظهم دوي هائل، إعلان حرب صم آذانهم، فقاموا من مكانهم، اصطفَ الضباطُ أمام الجنودِ، يقابلهم قائد المنطقةِ، وقادة الوحدة، والفرق منتصبون مثل أعمدةٍ تراشقت جوار بعضها البعض، فظلتهم سماء،

تقدم قائد المنطقة خطوتين للأمام متأملًا الجباه المرفوعة في شموخ، أظهرت ملامح وجهه ابتسامته، وهتف:

"الحياة العسكرية تنتقي الرجال، وتربيها لتصبح ذخرًا؛ ودرعًا قويًا لحماية البلد من أي عدو داخلي وخارجي".

صمت، ووقف أمامهم، وهو يستطلع جميع الوجوه، ثم أضاف:

"سوفَ نركض معًا، مسافة عشرون ميلًا شرقًا، سوف ننطلق من هنا، ونتجه شمالًا حتى نبلغ البحر؛ وننعطف شرقًا حتى نبلغ نقطة الوصول".

تحرَّكَ الجمعُ يعزفُ آمالَه على أوتارِ قلوبهِم، امتطوا الأرضَ وركضوا بخطى سريعةٍ، رمقهم الحراسُ، وهم يغادرون بإعجابٍ، وقد أدوا لهم التحيةَ العسكريةَ، صحبتهم سيارات مدرّعةٌ خفيفةُ العتادِ للحمايةِ، الشمس ليست في مزاج طيب؛ لتنشر أشعتها حانية، وقد بدأت تلتهبُ لتعلنَ عن غيظٍ شديدٍ قادم، أدركوا الشاطئ بعد دقائق، فأتحفتهم مياهه الزرقاء الصافية، وكادوا يرتمون فيه لولا التحذيرات التي تمنعهم من فعل ذلك.

ساروا في طابورٍ مستقيمٍ، مثنى وثلاث مكونين خطًا طويلًا، كنمل ذات رؤوس كبيرة يحاول اعتلاء تلٍ أبيض، تناثرت السيارات على يمينهم، ووضعتهم ناحية البحر، جاء صوتُ العقيد حسين من المقدمة، محفزًا حماستهم من أجل اللحاق به، ذكرهم بواجبهم، والمهمة الشريفة المكلفون بها،

وأكد العقيد بالبقاء مسافة داخل المياه، فغمرت المياهُ كعوبهم، وأبطأتْ حركتهم قليلًا.

سطعت الشمسُ عليهم من علوٍ، وعكست أشعتها بريق المياه، ونقاء قلوبهم النّقية، تعالتْ أنفاسُهم بلهاثٍ قويٍّ، وخفقت دقاتُ قلوبهم عند تجاوزهم نقطةِ المنتصفِ، وتصاعدتْ أدخنةُ السيارات، وهي تجتازُ أرضًا مليئة بالملحِ، ألهبت حماس الجنود والضباط وعبروها قفزًا.

انكمش امتدادُ الطابور متململًا حول نفسه عند اقتراب خط النهاية وتباطؤ بلغوه بأجساد منهكة، مغطاة بالعرق وقوة التحمل، تركهم القائد حتى يهدأ ضجيج تعبهم، وسخونته المتصاعدة، قبل ترتيب أمر العودة.

تهادت عقولهمُ بالانغماس داخل البحر في لحظةٍ واحدةٍ، كأنَّ البحرَ نجّاهم سرًا، ودعاها للسباحة؛ فانكبُّوا على البحر حتى الانتعاش، تركهم القائد فترة ثم أمرهم من داخل سيارته:

"عودوا إلى وحدتكم سيرًا".

ثم استطردَ بحزم عندما لاحظ تلكئهم:

"الآن! هيا أسرعوا".

فأسرعوا الخطى، عائدين.

في الليل كان غطاؤهم غطاء الليلة السابقة، انتصبوا مرتجفين وتأملوا فرشهم، ثم فعلوا مثلما فعل حاتم، نزعوا أغطية الفراش، وثيابهم الملطخة، وذهبوا للاغتسال، ثم البحث عن قارورة عطر غير موجودة.

لم يستطع حاتم العودة إلى فراشه من كثرة متاعبه، اعتلي سقف الثكنة واستلقي على ظهره يعد النجوم الساهرة، ويناجي قمر نصف مكتملٍ، يبعث شكواه وكمده والظمأ الذي يحسه إلى الفضاء، بعيدًا عن مكان وجود نوران، تباريح قلبه لم تجفْ، مكومة خلف جدرانِ روحه، وهوى متقدٍ لم يسعفه قط، وأحلام ورؤى متراكمة عند بوابات نفسه؛ تستقوي على قلبه كي يبدأ رحلة تحقيقها، وما مِنْ شفيعٍ له يقيه مصارعها، أو يجبره على إعلانِ هدنةٍ؛ لإحلال فترة سلامٍ طويلة.

تمنى لو يصبح القمرُ مرساله، يطوي رسائله تحت جناحيه ويحوم بها حول غرفة نوران، يقرأها سلامه؛ ويعطيها لها تباعًا لتقرأها، ويعود إليه بردها، منعَ وداعها، وحرَّم عليه حمل هاتف فيحدثها، همس في ذاته، ماذا أصابني؟

امتدَّ سمعه فأدرك صوت ارتطام موج البحر برمل الشاطئ المنكوب، وشعر برذاذه يلفحُ وجهه، فخبأه عنه، ووجّه دفته نحو الجنوب، خيالاته تتخاطر أمام عينيه، وجسده رابض على سقف الثكنة مثل مؤخرة غول ثمينة، فانتصب واقفًا شاجبًا نفسه في الهواء، لم يشاهدْ غير الظلال، وما كان له أن يشاهدَ غير ظلال، وعجزَ عن معرفة ما يجب عليه فعله.

أحسَّ أن الشجن يزحفُ إليه متخفيًا وراء ستار الليل؛ كي ينجح بالتسرب داخله مثل جرثومة لئيمة، فقفز من فوق سطح الثكنة ودلفَ من الباب، استقبلته الرائحة التي فرَّ منها، أغلقَ أنفَه بيده، واجتاز الأسرة النائمة؛ حتى تعثر بسريره، عرَّاه من كلِّ الأغطيةِ الجديدةِ التي تكسوه، وقلّب المرتبة الاسفنجية على الظهر، وجلب غطاءً جديدًا من خزانته وفرده فوقها، واتخذ ساعده وسادة لرأسه، ودخلَ في سباتٍ عميقٍ.

***

أذَّنَ المؤذن لصلاةِ الفجرِ، بينما خالدُ سعفان غارقًا في مستنقع أفكار غير سعيدة، وأحلام يقظة يستحيلُ تنفيذها، ارتجف لمَّا جاءه الصوت بغتة، ثم أحسَّ بالطرب لسماعه الأذان، لأول مرةٍ ينصتُ قلبه السمعَ، ويتغنَّى معه بشجونٍ خاضع، اجتاحه حنين غامض إلى شيءٍ مجهولٍ، حنين لأي شيء ما، فأحسَّ بغربة أكبر وضياع.

"الله أكبر الله أكبر" ظلَّ يردد خلف المؤذن بانكسار، وبعد فراغه ابتهل، ودعا الله أن يخفف عبئه، ويفرج عنه همومه، ويمحو سيئاته، دمعت عيناه، فقام وتوضأ استعدادًا لصلاة سريعة؛ كما تعود منذ الصغر عندما كانت أمه تنهره لتقاعسه عن الصلاة، فكان يسكتها ويقيمُ صلاةً سريعةً كخطى لاهثة لا قراءة فيها ولا تسبيح، ولمَّا سمع إقامة الصلاة زاده الشجن، فقرر الذهابَ، وتأديةَ الصلاة خلف الإمامِ.

أعلنَ نقيقَ الضفادعِ عن غموضِ اللا شيء، وفجأة انهمرَ المطر بغزارة، دقتْ حبات المطر رأسه ومئذنة المسجد المتآكلة عند المنتصف، وبرقَ البرقُ بعنفٍ وضرب المئذنة ضربة قاسمة، وهشم خصرها، جعلتها الضربة تترنح كنخلة نحيلة في مهب الريح، ومالت بشدة تجاه الجنوب، وسقطت متحطمة فوق السقف الذي حمى رؤوس المصلين من السحق تحت أنقاضها، خافَ خالدُ ووقف بعيدًا، مكتفيا بتأمل الحطام دون تقديم أية مساعدة، وهَمَّ المصلين على وجوههم وسارعوا بالخروج؛ ليتبينوا سبب الضجة والدوي الذي هز أركان المسجد، تأملوا انقسام المئذنة، ونصفها المتحول إلى شذراتٍ مهشمةٍ.

تراجع خالدُ للوراء عائدًا من حيثُ أتى، واتخذ الطريقَ الواصلَ بين فناءِ المسجد ومكان الجسر الخشبيّ القديم، الذي أقيمَ وقت شق الترعة، والتي تحولت فيما بعد إلى أنبوب ماء مغطى تحت مسمَّى الري المطور، وأزيلَ الجسر وأخفى أثره كأنَّه لم يكن، وظلَّ المكان يثيرُ حنينَ خالد لأيامه الخاليةِ، وعزٍ قد مضى ولن يعود، أحبَّ دومًا السير من هذا المكان؛ ليتذكرَ أشواقَ الحبّ مع حبيبته القديمة هدير، وتبادل المشاعر الممزوجة بطعمِ الخوفِ، ورائحة الرغبة، رغم أن المسجد مواجه لبيته، ويبعدُ أمتارًا قليلةً إلا أنه بعد إزالةِ الجسر حافظَ على دربه القديم، وطالما مرَّ من الطريق الجديد مكان الجسر.

اجتاحته ريحٌ خفيفةٌ محملة بالحنين والذكريات منتصف الجسر، أصابته باشتياق مؤلمٍ، فوقف يجمع منها ما يستطيع لتعينه على الغيابِ، ويستعيد

قواه المنهارة، واختلطت الذكريات وتاهت وسط عقله المتخم بلطخاتها، المنهك بكثرة التفكير بهديرِ ليل نهار حتى استحوذتْ على يومه، رغم أنَّه وعد نفسه ألّا يفعل بعدما هجرته، وتزوجت غيره.

دبيب في القلب يخدرُه، ويتركه كالملدوغِ من طائرِ عشق انقرض فور خلقه، ابتلع ريقه يُخفّف مرارة حسرته، ومضى قاصدًا فناء بيته وماء المطر يتساقط من بين خيوط ملابسه، نظر لجسده المبتل وشدة ارتجافه يتكالب عليه الاشتياق ويغلبه، رفع رأسه المطأطأ، ونظرَ على يساره يتأمل مسجد الفقي بعدما انطفأت أنواره تدريجيًا؛ لخلُّوه من المصلين.

عاد خالد إلى بيته يصبه مزيدٌ من النحول، وفي الليل ملَّ البقاء في البيت، فخرجَ يتلمس الاطمئنان والراحة، تجنَّب المرور فوق الجسر، والسير على طرق قدْ تجنّبه لقائه، التقى سمير صدفة، زميل دراسة من أيام الثانوية، لم يرغب خالد بصحبته يومًا؛ كانَ يحسده بسبب تفوقهِ الدراسي، وتلاشي هذا الحسد بعدما قدّمَ خالد أوراقه في كلية الطب، وعجز سمير بالالتحاق بواحدة كما كان يحلم ويباهي أصدقاءه، دار بينهم حوار قصير تساءلوا فيه عن أحوالهم، وتجنبوا ذكريات الدراسة والتحدث عنها، وبعد مناوشاتٍ استطاعَ سميرُ جرّه نحو المسجد لتأديةِ صلاةِ العشاءِ وخالد يضيق صدره، لكنَّه انساقَ خلفه مثل حمل أخير في عائلته سيق ليقدم أضحية، وما أن سلم الإمام حتى خرج خالد من المسجدِ هائمًا، يشعرُ أنَّه دنَّس قدسية المسجد، ولا يليقُ بمثله التواجد فيه، تبعه سمير متجهمًا يتوارى بالظلام حتى استوقفه:

"لِمَ العجلة؟"

تلعثمَ خالدٌ باحثًا عن جوابٍ يرضي صاحبه، وقبل أنْ يتداركَ نفسه، ويمسح الخجل من على وجهه، ويغرقُ في دائرةٍ مِنْ الصمتِ قال:

"أمرٌ هامٌ يجب إنهاؤه".

فسارا معًا وسط العتمة ووحشتها، بشرَّه سميرٌ برضوان الله كأنه متيقن من غضبه عليه، وآنسه بكلماتٍ نزلتْ عليه كبلسمٍ شافٍ لأوجاعه، لامست قلبه كحباتِ نَدَى رقيقة هاربة من غلظة الحر، أزالتْ تكلسات أحزانه وأذابتها، وحركت شيئًا داخله.

فعادَ خالدٌ إلى البيتِ مسرورَ الوجه، يحدو قلبه الأمل، والرغبة بالبدء من جديدٍ، وإلقاء ذاكرة الماضي خلفه، لمْ يحتاجْ للماءِ هذه المرة ليحسَّ الطُّهر، فهو سابح في نهر نفيسٍ من طهرٍ صافٍ، يجعله يطيرُ في فضائه حرًا دون آثام، تحول ندمه لشعلة تجلو ظلامَ صدره، وتضيء وجدانه، جلس على الأريكةِ ببهوِ البيت مستبشرًا بحياة قادمة، وذاكرته الجديدة المكتسبة تسردُ آخر ما سمعه، وأول ما بذر فيها "الله رؤوف بعباده".

تراءت له لحيته المسترسلة، ووجهه السمح الضاحك، والتواعد لصلاةِ الفجر خلف الإمام، لم يكن متأكدًا بوفائه بالوعد وهو يعطيَ سمير صك الموعد، الآن يتخيل اللقاء، وما يعقبه مِنْ حديثٍ حلوٍ يبدد وحشة روحه، ويملأ خرائب

قلبه المهدم، بعدما عبثتْ به أناملٌ فتاته التي هجرته، وقضاء السهرات الطويلة مع رفاقه.

تقلبه هذا بين اليأس والحياة يفضحُ تلعثمه، واضطرابه الداخلي؛ مما جعله ينتقلُ من القنوطِ إلى الأملِ في لحظةٍ بدت مساومة من سمير، وهو لمْ يقتنعُ بما قال، لكن خالد أرادَ شحذَ قواه المستكينة، وملء فراغه القاتل وانشغاله بالطاعة، وبأحداث لا يهمه ماهيتها ولا نهايتها، لم تكن قناعاته مترابطة كفاية لتحميه من التذبذب بين متناقضين، وهو يشعر أن وجوده في الحياة هامشي، ولا يمتلكُ القدرةَ لتغيير قدره، والغوص في أعماقِ نفسه؛ ليرى ما يجولُ داخلها، ويتعرف على ما يريد، طوى صراعاته العنيفة، وانزوى خلف أحلام بصراعات جديدة، بوعيٍّ مزيف يتأرجح بين ما يجهله، ورغبته التائهة في اكتشافِ المجهول.

قبل انطلاق صوت المنبه الذي أعده لإيقاظه عند الفجر، استيقظَ خالد على أصواتِ الابتهالات، توضأ في بيته، وذهب إلى المسجدِ مبتعدًا عن الجسرِ، الذي لم يبقَ منه غير ذكراه تؤرقُ يومه، وتجدّدُ مراثى كآبة لا يجد مَنْ يسمعها، ويفندُ جانب الخرافة فيها.

نفحات الفجر وعبق رائحته يحلقون حوله في دعةٍ، وتزخر السماء بهالاتٍ من نور، تجعلها كستارة مزدانة بالبياض، فسطعت أشدَّ وأصفى من باقي الليالي، وأضاءتْ دِربه الحالك، تجاوزَ عتبة المسجد بكلِّ الخواء والجمال الذي يغمره، وفي المسجد السكينة والراحة المفقودة بين رحى الحياةِ التي لا

ترحم، لكنَّ الضياعَ يكتنفه، ويمنيه بأمانٍ كاذبة، وبحياة خداعة سوف يعيشها بسعادةٍ.

جاء للإقامة الصلاة عجوزٌ يمشي بتثاقلٍ، كأنه يخطو خطواته الأخيرة إلى مدفنه؛ يضعُ سماعةً فوق أذنه كي تعينها على مغبة الكبر، عندما لامست أنامله هيكل الميكروفون الصلب كان المصلون قد اصطفوا يترقبونَ بمثابرةٍ إقامته للصلاة، ويتساءلون عن قدرته على فعلها، أخيرًا صدحَ بنبرةٍ قويةٍ تتنافى مع هيئته، ادخرها من قوى سنين عمره الفائت وشحن بها الأثير، فوجئ خالدُ بصوتهِ، وانتفضَ واقفًا، التصق بالصف الأول قبل أن تفرغ الأمكنة، وجاء صوتُ الإمام عذبًا، تسربت حلاوة التلاوة إليه وروت نبتة الخير فيه، علَّها تطرحُ أملًا يؤكل.

بعدَ الصلاةِ هوى بكل ما يحمل بجوار سمير الذي يهز الأركان بصوته الحسن وهو يتلو القرآن، قرأ خالدُ خلفه وهو يتتعتع، أخطأ بنطق بعض الآيات فصححها له سمير بتأنٍ كمعلم صبور، ثم أردف بأنه يجب عليه تعلم القرآن، وحفظه كما يليق به كمسلمٍ، وطالب بالجامعة، ثم توقفَ يشحن قواه لنطق باقي جملته ويدرسُ الطَّبَ، وتنهَّد بأسى، تحمسَّ خالد للفكرة وتخيل نفسه حافظًا للقرآن يجلس فوق ديوان مرتفع، يُفَقِّه الناس في الدين.

يجلسُ شابٌ غير بعيد عنهم يلقي عظة دينية، أصغى له خالد السمع، فسمعه يقول "وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله –صلَّ الله عليه وسلم–: "والذي نفسي بيده، لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى

تحابوا، أوَلَا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلامَ بينكم"، ثم استرسل في موعظته، وفكر خالد مشغولًا عنها.

بعد أيامٍ جلسَ خالدٌ بين يدي شيخ يرتدي غترة حمراء فوق زي أبيض تحميه من البردِ، وتزيده وقارًا كاذبًا، وغطاء رأس أسود يخفي صلعته، يرتدي نظارةً طبيةً عدساتها سميكة وإطارها غليظ، تبدو عيناه من خلفها شديدة البياض يصيبها ضمور؛ تحاشى خالدُ النظرَ إليه رهبةً منه، ولم يعلِّق على هيئته الغريبة حتى في نفسِه؛ خشيةَ إغضابه.

قال الشيخ بصوتٍ رقيقٍ لا يتفقُ مع صرامته: "سوفَ نبدأُ الحفظ بسورة الأنفال، فيجب على كل مجاهد أنْ يحفظها"، تسربت كلمة مجاهد إلى ذهن خالد دون رنينٍ، ولم يهمه بأي سورة يبدأ ما دام في النهاية سيتمُّ حفظ القرآن كاملًا، وخلال تلقينه القرآن لمحَ خالد زائرًا يرمقه، فخجلَ من مشاهدته إياه يجلس بين يدي الشيخ كطفلٍ يحفظ القرآن، قرأَ شيخه ما يدورُ داخله، فربَّتْ على كتفه يشجعه على الاستمرار، وطمأنه بأنه على الأقلِ قد بدأ، وهو ما زالَ يتبعُ غيه.

بعد أيامٍ من مداومة خالد الحفظ فَتَرُتْ همته، وخمدت الفكرة وهو لم يتجاوزْ نصفَ جزءٍ من ثلاثين جزءًا، حلم آخر مستجد يُكاد يضم إلى لائحةِ أحلامه المنسية التي خذلها، مما أشعر سمير بالخجل أمامَ الشيخِ بسبب تخاذله كما نعته واتهمه بضعفِ الهمة، وبعد جدالٍ طويلٍ لم يُحْسِنْ خالد الدفاع عن نفسه

كالعادة، نصحه سميرٌ بالتخلص من رواسب الجاهلية التي يفيض بها قلبه، فاجتاحه يأسٌ آخر ورغبة بالخلاص.

لكنه لم يكن ليسمح بآخر أحلامه بأن تتبخر في الهواء وتصبح عدمًا، وازداد تمسكًا بحلمه الذي تنتهي دونه الأحلام؛ وصمم على خوض آخر معاركه ضد نفسه ليثبت جدارته، ويفرضُ إرادته عليها، فرتب فوضاه وشحذ شجاعته، وباشر بذبح تقاعسه أمام فشله؛ ليخيفه من سطوتهِ وقواه الوليدة، أرسل لحيته مشذبة إلى مقدمةِ صدره، وقرر التفرغَ للعبادة والدراسة، رحبت أسرته بقراره وسط اندهاشٍ لا حدود له، لم يزعجهم تدينه الذي جاء بضربة حظٍ عاثرٍ، ظن والده أن التزامه سوف يهذب أخلاقه بعدما عجز هو عن تهذيبه، فشجعوه على المضي قدمًا، وفي المقابل لم يتلُ عليهم خالد قائمة طويلة من أوامرٍ لا تنتهي، تتماشى مع مستجدات حياته المكتسبة؛ تجنبًا لأي صدام غير مستعدٍ كفاية لخوض غماره، ومضت الأيامُ في سلامٍ.

في أحد الأيام وأثناء تواجد خالد بالمسجد، وهو يتأملُ زخارفه بذهن صافٍ خالٍ من الكدر، ويتأملُ السقفَ الموجودَ بالسماء بدون مأذنته القديمة بعدما تهدمت لتشير إليه، وترشد التائهين، راح يغوص في غمار المستقبل راضيًا عن نفسه، غير حانقٍ على الحياةِ التي أذاقته المرار قبل شهور قليلة؛ لفقده حبه الوحيد، تمنى السفرَ بعيدًا أو الدخول من بابٍ واسعٍ تحفّه الملائكة من كل جانبٍ،ذهبَ بخياله الجامح بعيدًا دون لجام يوقفه عند اللحظةِ المناسبةِ؛

فتحَ عينه ليكبحَ شروده الآخذ بالتزايد، فرأى سميرَ منتصبًا عند قامته، وعلى فمهِ ابتسامة ساخرة حبيسة، فقالَ له خالد:

"أين كنت؟"

"أودع ناجي، لقد سافر إلى سوريا"

"سوريا؟!"

"نعم!"

توقفَ ثم أردفَ وهو يحدّقُ في وجه خالد، ويلتقط تعابيره أثر تعقيبه القادم:

"للجهاد ضد قوات بشار".

جفَّ ماءُ الحياة من عروقه، وبدا متصلبًا كصنم غيره الزمن، أعلنت حيرته اندهاشه الكبير من قدرةِ شخصٍ ما على السفر من مصر إلى سوريا، دون اعتراض طريقه.

بعد أيامٍ تحدّثَ خالد مع شيخه حول مآل الثورة السورية، فحث الشيخ خالد على الجهادِ لأنه واجب، لنصرة الشعب السوري، فسأله خالد:

"وهل هُمْ قلة؟"

"لا! إننا نساعدهم فقط"

"لي صديق سوري قال لي مرة: إنهم يرفضون أي تدخل خارجي وإن كان عربيًا؛ لانها ثورتهم هم، وعليهم حمايتها، فلماذا نمد لهم يد المساعدة، وليخوضوا هم معركتهم بأنفسهم؟"

"ونتفرج عليهم من بعيد وهم يُقتلون؟! يجب أنْ نقاتلَ بجوارهم وألا نتخلى عنهم أبدًا"

"ولماذا! ألمْ تقل إنهم ليسوا قلة؟ أليسوا مثلنا؟!"

"أنت تجادلُ كثيرًا، سفرك سوف يشد من عضضهم"

"لكني لا أملكُ المالَ؛ كي أسافرَ"

"سوف نتكفلُ بكل شيءٍ، مصاريف السفر والسلاح"

"أنت من يتكفل بهذه التكاليف؟"

"هذا ليس مِنْ شأنك"

بعد فترةٍ وجيزةٍ غاب خالد عن وجود قريته، ومحيط الجامعة؛ وانتقل إلى سوريا للقتال.

كانت محاولةُ تدينُ خالد تجربة أخيرة للخلاصِ مما يختلجه من غيظٍ، لكنه لَمْ يتحلَّى بإرادةٍ كافية؛ كي ينجح فيها، وبقي على عجزهِ مطفئًا القنديل الذي أضيء داخله يستلهم منه النور، ويدله على طريقِ الخلاص.

***

عند الدرجِ العلوي من الفجر استيقظت نوران على إيقاع نبض حنين قلبها، وشجنها المؤرق، كأنهما شيطانان لا ينامان، يعبثان بعقلها، ويفسدان مناماتها، ويعكران عليها صفاء روحها، لا يهتمان بإغوائها كأن مهمتهما المكلفان بها هي إزعاجها فقط، قواها مخذولة، ممددة فوق الفراش بروح خائرة، عاجزة عن تحويل سكونها حراكًا، قلبها يئن ويعوي مثل ذئب التهمت أنثاه أثناء غيابه، تبكي بعَبرات جف ماؤها، استعارتها من العدم، سبعة وعشرون يومًا لم تلمح خلالهما طرف حاتم، وانعكاس صورته في مرآتها الغبشة بالاشتياق إليه، استوت على عودها، ثم جلس على حافة السرير مثل صرح ينهار، امتطت أحزانها وطارتْ مفتشةً عن مصلٍ ناجعٍ يداويها منها، ويكسبها مناعة ضدَّ الأوجاع، عادت خالية الأكف الضارعة، فوجهتها نحو السماء؛ لتناجيَ الله سرًا وتدعوه؛ تبث له أمنيات تخبئها عيناها كي يجعلها قدرًا يطرق أبوابها.

في الظهيرةِ اجتازَ حاتمُ عتبة البوابةَ الفاصلةَ بينَ دأبِ الحياةِ العسكرية وحياة المدنية، حملته الحافلة في بطنها كأمٍّ حنون، فتأبط ظهرها مثل ولد بار، قطعتْ مسافةَ الطَّريقِ بين العريش والقنطرة شرق وعبرتْ القناة، كان نائمًا كل هذه المسافة وخلال العبور، فاته رؤية الأسماك وهي تطعمُ من فضلاتِ الطعام الملقى على صفحةِ القناةِ، المزركشة بالسفنِ العابرةِ من كل جهاتِ العالمِ الأربعةِ، وفاته مراقبة الطيور وهي تلهو وادعةً، وتتسامرُ بأفقها بتناغم يدعو للعجب.

يمضي إلى جوارِ نوران وهي لا تعرفُ بمجيئه، يبقى اللقاء كما هو سرًا، ورمزًا للمودة بينهم، ونوران تنتظر قدومه كل يوم، كي تمتص منه رحيق يكفيها إذا غابَ في أيام الوحدة، ويجنبها أرق الليالي ومرارة الفراق، والحنين بعده، ويشجيها إذا بات شجنها شوكًا ينغزُ خاصرتها محولًا إياها إلى ثكلى تعد ساعات انقضاء عمرها لتلحقَ بأهلها الموتى.

حاصرتْ نوران نفحات قلبه الذي يقترب وهي منزويه بغرفتها وحيدة، استنشقت نسمات مختلفة تعرفها حينما كان يتردد عليها نهاية كلَّ أسبوعٍ وقت سكناه الكلية الحربية، نظرت من النافذة فوجئت بحاتم يحرك بوابة الحديقة مبتسمًا بحزن، غمرتها عواطف ومشاعر كثيرة، أنَّ الله استجاب دعاءها وتضرعها في حلكة الليل، أنَّ روحها تلبس جسدها الميت من جديد وبعثَ فيها الحياة، ضحكت، وضعتْ يدها على وجنتيها، تنهدتْ سعادةً، خانتها العَبرات وتقاطرتْ من شدةِ الفرحِ، تقدَّمتْ خطوةً ببطء نحو النافذة، وكادت تقفز منها لاستقباله، ثم هرولتْ لأسفلٍ مجتازةً الدرج وصولًا لباب البيت، قبل عبور حاتم العشب الاخضر المفروش بالحديقة، طلت من خلف الباب كأنَّها القمر المنير يشق الغيم بضيائه، أبصر حاتم نورها وبهجة انتصارها، رأى النسمات تحتضنها وتقبل وجنتيها، فراحوا يتنفسون عبيرهم.

بعد لحظاتٍ لا يعلم هل طالت أم قصرت، أطلت ذاكرتهما لتنهل من رحيق قلبيهما، والعيون تمدها بسيل من سمات وجههم، والملامح التي خلفتها الأيام

عليهم، خبّأت نوران وجهها داخل صدره، وعادت إليه مرة أخرى، غارقًا في دعائها.

حفيف الأشجار حزينٌ، والأوراقُ تتساقطُ يابسة، تثير تباريح تذكرهم بأوجاع القلب الكبيرة، عيناها ساهمة، تُذْهِبُ بكل المشاعر البائتة، وذكريات قديمة طوقها النسيان، وتشيد أخرى حديثة لتبني صرحًا آخر أشدّ قوة، وضعت نوران أطراف أناملها على عيني حاتم تسكبُ رحيقَ قلبها داخله، وتركته في نشوة انتشاء، وعربدة حبٍّ ولدٍ ليجوعَ باقي عمره، لم تسأل لِمَ جاء، وكم يومًا سيمكثُ عند ضريحِ فؤادها، خافت الإجابات، ففضلت الجهل بها على ألمِ المعرفةِ، ولتبقى معه ما بقي راضية باللحظات القصيرة التي تزف فيها آهاتها إليه.

أخبرها أنه راحل بعد ثلاثة أيام، فأجابته بالقبول وبدعوة خفيه "رضيت يا رب... رضيت"، ألقتها همسًا على سمعه كتعويذة ناجعة مانعة لمخاوفها، ابتهج فهذه أول مرة يراها تتكلمُ عن الله، ففتحت مؤتمرها عن سماحة الرضا مثل ولي، سألتْ بصمتٍ ماذا بك؟ فبث سؤال، أجابته بأن الرِّضا يحسِّنُ القضاء، ويغير القدر، فأخبرها بصيغة السؤال، كيف وقد سبقَ قدرنا تصرفاتنا في اللوح المحفوظ؟ أجابته أنه ملكوت الله يتصرف فيه كيفما شاء، وهو القائل: "ويجيب المضطر إذا دعاه"، وأضافت شارحة: "القدر يتغير، لكننا لا نستطيع أن نفسر ذلك، الدعاء المستجاب يدفعه"؛ لم يسعفه عقله للفهم بسبب تعب السفر، وأومأ برأسه بالتصديق واثقًا فيها، رحبتْ بتفهمه وتجنّب عجرفته

الذكورية التي تعودت عليها، ورضوخه لامرأتها التي تأهله للزواج منها، فاستطردت بدلالٍ أنثويٍ وهي تعبث بأكمام ثوبه:

"آها، أراك قبلت رأيي!"

"ألا يعجبك أي شيء؟"

ثم أردف مازحًا:

"يجبُ الانصياع لك، لا أريد مشاكلًا تفسد إجازتي"

ربّتت بعنف على صدره، فأصدرَ تأوهًا مصطنعًا؛ وتظاهر بالألم ليختبر لهفتها، فاتسعتْ حدقاتها شاعرة بالندم، وهو يتبختر على مرجلٍ نفحات الحب المتأججة، ثم طعم اعتذارها حتى لا يرهق قلبها الذي أحبه.

***

تأبَّطَ خالد صخرة تعلو مرتفعًا رمليًا بشمال سيناء، بعدما عاد من سوريا في زمن مجهول، تأمل الأفق الممتد أمامه في دعة مثل بساط من غيم كثيف تزين باللون الأصفر، وعاد إلى ذكرى هدير فتاته التي هجرته وملامحها الغائبة، التي يأنبه ضميره كلَّما تذكرها، دبيب الحنين في قلبهِ يطقطقُ كاحتراق جذوع الخشب الجاف، عيونه جائعة لرؤيتها، ويحلم بتذوقها، يأملُ أنْ تصعدَ أمنياته من دربٍ خفي إلى السماء وتُلَبَى، يترنح عقله في وادٍ من نور، يشاهد فيه هدير ترقص بثوبٍ أبيضٍ فضفاض، يتخيلها حورية هاربة من تلابيبِ السماء، ناسيًا أن من يهرب من سعة السماء يتبعه أبليس اللعين؛ وهدير هي

التي لحقت بالشيطان وطاردته حتى تعبَ، راجعَ نفسه فرفض اليأس من حبها والقنوط، ركل عظمة هشة تناوبت عليها الثقوب حتى نخرتها، لا يعلمُ أتعود لبشري أم حيوان؟ ومضى ملعثم الخطوات كأنَّ التلةَ تسارعُ بالطيرانِ، وهو يحاولُ إحكامَ توازنه.

تجادله الآهات حين يذكرها قلب خان قبلًا لن يَحنَّ مهما أناب وأستغفر، فراي ضعفه ماثلا أمامه ليغيظه، فاجتهدَ إلى تذكر ماضيه بدونها؛ كي ينسيه ماضيهم المشترك، فتراءت له أيام حلب، والبراميل المتفجرة تنهال فوق رؤوسهم صلعاء من غطاء يحميها، وطلعات الطيران الروسي، وتذكر مهمته المنحصرة على إخراج فوهة السلاح الآلي عبر كُوّةٍ ضيقة مصنوعة بجسد جدار يعود لمبنى شبه مهدم، وقتل أي كائنٍ يتحركُ في مجال رؤيته دون التأكد من هويته وإن أبرزها، مثله مثل كلبِ حراسةٍ مدربٍ ينبحُ على الغرباءِ الذين تطأ أقدامهم فناء بيت جدّه.

نظرَ خالدُ وهو ينحدر إلى منزله كأنَّه يستبعد المسافة، مسكنه منزويًا وراء عدة بيوت بنيت بالطوبِ الأبيضِ، ومسقوفة بخشب، وغاب مجموع من أحراشِ الدلتا الغائرة في الوحل والجهل، تحيط بهم مزارع الكلمنتينا والزيتون.

بضع بيوت نائية ومنسية، يمدها الغضب بوقوده فتشتعل وتحرق من يجاورها، قرية صغيرة معدومة الضوء والنور، تفاوض الشيطان على إنشائها وبعثها إلى الدنيا، ومن بين الأماكنِ المعزولةِ نائية وسط قفار سيناء، موبوءة بنابذي المجتمع، بثرة غريبة غدت لتبتر من جذورها دون موعد أو وعد، لجب خطرها

من الامتداد في الجوار، خلف هذه البيوت تتدحرج شاحنة محملة في الظاهر بطوب جلب من جبال المنيا البيضاء، مدسوس بها كمية من ذخائر وأسلحة تكفي لهدم مدينة كبيرة، رآها خالدٌ من بعيد، بلعَ ريقه وانحد يسارع الخطى إلى المجموعة.

لا يأمنون بأس استطلاع الطيران قبل غروب الشمس، وفي أوقات أخرى تداهمهم طلعات أرضية، تراهم يتطلعون للريح بعدما فتشوا ولم يجدوا شيئًا، فحشرتْ الشاحنة المحملة بالموت بين بيتين متجاورين، تكاد تكفيها المساحة الفاصلة بينهما، ونامت مع الشفق، وبعد الغسق والقمر غائب حيث لا ضوءَ يشقُ الظلام، انفرجتْ الأرضُ عن حفرة كبيرة، بها صناديق فارغة فاغرة فاهها، أحاطها سبعة رجال متطلعين إلى جوفها بعيون متوجسة خيفة، تتمعن قدرةَ استيعابها مدخراتهم الجديدة، لم يُعْطِهم ذكاؤهم نسبة صحيحة يتفقون عليها، تحوّلتْ نظراتهم على الشاحنة المحشورة وتابعوها كأنها تزأر من سخونة البضاعة، ثم أمرهم أبو عمران كبيرهم بإفراغ الذخيرة، والمتفجرات بالحفرة.

وقف خالدٌ حولَ الشاحنةِ وسط المجموعة حائرًا، اعتلي البعض ظهر الشاحنة، وأنزلوا صفوف الطوب الخلفية؛ ليكشف عن فتحة سردابٍ خشبيٍّ يرتكز على سطح الشاحنة المعدنى، مخفي وسط حمولتها البيضاء البريئة للتمويه عما تخبئه بجوفها، كأنَّها كتلة واحدة من حجارة مجوفة، تحوي داخلها موت مخزن يعتقه الطغاة ليكون مزاقة لاذعًا، ويقتلُ ولا يذر، مثل حصان طروادة قدم قربان كي يحل السلام، وهو يخبئ الموت.

حطم خالد باب السرداب بمعول صغير ونظرَ فيه، وهو يوجه ضوء المصباح الكهربائي داخله يذيبُ عتمته، لم يرَ غير ظلال أشباح الدمار النائمة، فسحبَ أولَ بندقية قابلته ورفعها لأعلى بشكل أفقي، تأملها بحذرٍ وبعنايةٍ فائقةٍ، جديدة ولامعًا، الجميع فخورين بقوة سلاحهم الجديد.

نطق أحدهم من أعلى الشاحنةِ، وهو مقرفص فوق الطوب، ضامًا قدميه إلى صدره:

"نستطيعُ بهذه الأسلحة أن نقاتل جيشًا بأكمله"

فيهم من يشكَّك من القول، رغمَ ذلك نشطت حركةُ إفراغ السرداب وتعبئة الحفرة مثل خلية نحل دؤوب العمل بخفة، خيفة رصدهم من قوات الشرطة أو الجيش.

في هدأة الليل بعدما انتهوا، أوقدوا نارًا وتحلقوا حولها، يتسامرون على ضوئها، ووقع طقطقة الفحم المحببة إليهم، وهم يحتسونَ الشاي.

أودعَ خالدُ الأفق سؤالًا حائرًا، تائهًا في غيابات الجهل، كي يجيبُ عليه من يحمل إجابة تصلح له:

"كيف دخلت الأسلحة إلى سيناء؟!"

توهجت عين أبو عمران من خلف ألسنة اللهب المنبعثة في الهواء، أومأ برأسه إعجابًا بالسؤال، دائمًا ما يحب أبو عمران الإجابة بنفسه عن مثل هذه الأسئلة، ليطلع مستمعيه على مهارته، وفطنته التي يحسبها لا تقهر، تقدم

بظهره للأمام قليلًا؛ ورفع ركبتيه كي يضجع عليها بساعده الأيسر، وأمسكَ بيده الأخرى عصاةً دائرية غليظة يهش بها على النار، ولوح بها لهم، ثم نظر لفراغ عقولهم بعين ذئبٍ ماكرٍ، ثم تناهى صوته إليهم حنونًا، يثير شغف خالد من مكامنه السرية بعيدًا عن ذكراه، بينما يحدق في النارِ المشتعلة.

"بعدما ضيق الخناق لمنع التهريب عبر معابر القناة، بدأت مخيلتنا باختراع طرق جديدة، فاقترحتُ هذه الطريقة وأسميتها "الجوهرة المجوفة"، حملنا فيها السلاح ومواتير الكهرباء والماكينات، وكل شيء منع عبوره".

تأذت النار، وأصدرت صوتًا يئن، أضاف شارحًا:

"تتوقفُ الشاحنةُ في مستودعٍ مغلقٍ فارغٍ، وينصب السرداب من خشبٍ مدعمٍ بأعمدةٍ قويةٍ ليتحمل الضغط، ثم يُعبَّأ بالبضاعة، ويغطى بقوالب الطوب، وتمضي الشاحنة لا تعترضها الشرطة".

صمت شاعرًا بالفخر من عمله، فجاء صوت خالد متأثرًا:

"كيف تعبر القناة دون أن تكتشف؟"

نظر إليه، وعيناه ماتزال لامعة وسط العتمة، وأشار إليه بعصاه ثم قال:

"من معدية القنطرة، لا يوجد بها جهاز كشف بالأشعة فتمر بسلام"

ضحكوا حتى القهقهة، وتناهى صوتهم في الفراغ، ومضى متلاشيًا بالتدريج، فعم صمت زلزل أرجاء صحرائهم الا طقطقة الجمر وحفيف النار.

أكمل عمران الابن بغير سؤال:

"قديمًا كنا نتاجر بمختلف البضائع، أما اليوم نعملُ بتجارة السلاح فقط، فهي الرائجة هذه الأيام"

تابعت العيون المترصدة أي شيء يهتز فوق الأرض بعد حديثه الذي انقطع، تعلق بصر خالد وقلبه بعمران الذي يغبطه، كأنَّ النظرات إليه تغذي روحه بسائل يخفّفُ حدة أوجاعه من شدةِ إعجابه به، فسأل:

"هل هناك طرق أخرى للتهريب؟".

نظر عمرانُ إلى أبيه؛ لإعطائه الإذن كي يجيب، فأخفض أبو عمران ركبتيه، وغرز كعبيه في الرمل، ثم اضجعَّ على وسادةِ كستها الأوساخ، وأجاب:

"نعم"

ثم استدرج:

"طرق كثيرة"

"هل أنتَ يا أبو عمران مصري؟ لهجتك غريبة!"

"لماذا تريدُ أنْ تعرفَ؟"

"لا شيء، مجرد فضول"

"لا تهتم"

بدا خالد حزينًا ومسنًا حول عصبته، لم يعد يعنيه شيئًا من الدنيا، رغم شوقه لهدير وأهله الذي سَئِمَ التفكير بهم، أصبحت نبرة أبو عمران واحمرار الجمر وهبوب ألسنته يعكر صفو ملامحه، وتجعل عيناه جامدتين وشاردة، وخلفهما تقف ذاكرة نشطة تؤرقه بإعادة تفاصيل ماضيه، فغطّت على ملامحه مشاعر مختلفة زادته حيرة فوق حيرته.

اقتربَ منهم صوتُ طائرة هليكوبتر ارجفت آذانهم، وأرهبت قلوبهم، أمرهم أبو عمران بالسكوت، وإخماد الجمر الآخذ في الاشتعال، مع خفوت أبصارهم وارتخاء الجفون المتربصة للحياة، مرَّتْ المروحية من فوقهم دون أن تلاحظهم، فتنفسوا الصعداءَ وزفروه ببطءٍ، ثم وقف أبو عمران أمر الجمع بالتفرق؛ كي لا تدركهم طلعة استطلاع أخرى، وترجل في الظلام حتى ابتلعه، فتبعه الآخرون تباعًا، وكان خالد أول المخالفين وآخرهم.

فرصة مواتية لخالد؛ كي يستعيدَ التفكيرَ في معنى قدومه إلى هذا المكان، وفي جدوى انعزالهِ وامتهانه القتل، لكنه فضل أن تضيعَ فرصته الأخيرة كأيّامه.

***

عادَ حاتم إلى وحدته، استقبلته البواباتُ والحيطانُ بطلاءٍ جديدٍ عكس نور الشمس صباحًا، علم أنه سوف يرتحل بعد أيام، فلم يُطلْ الفرجة على التجديدات؛ تجاهلَ الكل وأخذَ يرتبُ حاجاته من أجل الانتقال إلى منزله

الجديد، بعد يومان جاء قرارٌ، وانتقل إلى مدينةِ رفح، مع ثلاثة ضباط أخرين، وتبعثر البقية على رقعةِ شمال سيناء الخطرة.

عندما أولى سربَ الشاحنات الذي ينقلهم وجهه للمدينة وجدها نائمة، بدت غارقةً في الذُّل والعار، وبلا أحلام، بعدما أصبحثت فيها قصص التفجيرات والقتل عادة يومية، وأمر مبتذل، كان الضباب يغلفها بأشرعته السوداء، ويعكس الوحشة التي آلت إليها منذ سنوات، وحولتها لمدينة ضاع أمنها، وأجهد كدحها الدؤوب، سارت مدينة منهكة، وأصبحت مثل حكاية تاريخية حزينة، ومشوبة بالخرافة، إنَّ الأمن في المدينة وشمال سيناء بعد ثورة يناير؛ وغروب الحكم القديم مصلاً منقرضًا بسبب الاضطرابات، وأصبحت مدينتي العريش ورفح تشبه شقي صدفة ملتصقين وسط بركة غار، يصيبهما القد نفسه، فقسّمتْ عليهن الإجراءات الأمنية بالتساوي، وحملت قوات الأمن السلاح لفرض أمنٍ يرفضُ قبولَ التكليف، ضد عقول لاهية بمعتقدات السكان المحليين، وإيمانهم بربهم.

أقيم من أجل المدينتين جلسة محاكمة، ولم تنفضَّ، فبيوتها مغلقة على ارتجاف قلوب سكانها؛ والطرق معطلة جراء العبوات المتفجرة، أو بسبب الحواجز الأمنية التي نصبت لمحو آثار الانفجار، بغضت المدينتان كل ما يُحاكُ ضدها، كل ما تريده هو المبيت باطمئنان، والإفاقة بسلام.

مدينتا سلام، بنيت على طريق الجيوش، ودرب حروب قديم، تدهسها الأقدام كعملاق خائف من فأر صغير.

في الليل طلعَ القمرُ في السماءِ حزينًا، بوجه شاحب غير غضبان مثل باقي وجوه أهالي رفح، تطلعُ حاتم إليه ثم أغمضَ عيونه بأسى، ثم فتحها مُطْلِقًا بصره إلى قمة جبل بعيد، أرجعَ البصر إليه خاسئًا وهو مرتبكٌ، يحصي منامات اليقظة التي تراءت أمامه، وعادَ إلى ثكنته الجديدة لتأويه، أطفأ المصباح، وغاب في نوم سحيق فور ملامسته نسيج الفراش، في الصباح اختير ضمن دورية الاستطلاع التي تجوب مزارع الزيتون والكلمنتينا، بحثًا عن شيء غامض يثير الشكوك، خرجت الدورية وعيون الفرقة محدقة في كل الاتجاهات، تقبض أصابعها على السلاح مستعدة لملاقاة الموت، العقول متأهبة لأي هجومٍ قد يحدثُ، تسيرُ الدوريةُ كما لو أنها تتجسس خلف خطوط عدو جاشم يتربصُ بها، والقلوب لا تخلو من بقايا رهاب.

تفقدت الدورية الشوارع الخلفية للبيوت بعد الهرولة بين الأشجارِ، وجد حاتمُ سيارةَ مرسيدس قديمة حولها الصدأ إلى كومةِ خردة، سرق اللصوص إطارتها، وتركوها تتكأ على أحجار ملساء، فتشها حاتم على مهل كأنها مشتبه به، لم يجد بها شيئًا غير قانوني، فانطلق يحلقون في دروب المدينة.

في اليوم التالي جاءت الدورية وفتشت كومة الخردة مرةً أخرى، راقب صاحبها الجنود ظنًا منه أنهم يعبثون بها، تجاهله حاتم كما تجاهل غيره ممن أرادوا الأمن وعبسوا من تدابيره، أي فكر هذا الذي يدعو إلى نوم الحراس وكل الأصوات تنادي بوقف هجمات المسلحين؟ تركت الدورية الرجل غارق في

شعوذة عقله، ومضت غير حانقة عليه، أكملت دورتها المقررة ثم عادت أدراجها مع أشعة الليل الأولى.

بعد أيامٍ أقيم سوق أسبوعي بالقربِ من المدينة، فأرسل حاتم مع دورية خاصة لتأمينه، تمركزت عند مدخل السوق الرئيسي، وانتشرَ الجنودُ بين الباعة، يراقبون حركتهم دون تدخل، سئم حاتم الوقوف فوق ظهر المدرعة، وترجل داخل السوق وكل العيون تتابعه بحيطة، انحدرَ وحيدًا بين دروبه المزدحمة ويده متشابكة خلف ظهره، وسلاحه مثبت على كتفه، صدمه شخص من الخلف بقوة، فاستدار إليه قبل أن يرتد طرفه، زفرَ ارتعاده براحة بعدما أمن جانبه، اعتذر له هذا الشخص مرارًا، فتخطاه حاتم بوجه سمح، كان هذا الشخص عمران مساعد أبيه المحنك قد صدمه متعمدًا.

صحب عمران خالد معه إلى السوقِ بعدما ملَّ خالد صحبه العقارب، فكان خير مساعد حمل عنه حاجته من الخضروات وقرون الفلف الحار والبطاطا، وعيدان النعناع، وبذور الكمون، ومطحون البهارات، وأوراق التبغ العربي، وفحم لإضرام النار، وسار خالد خلف عمران في دعة وسلام مع النفس.

بينما يصطدم عمران بحاتم كان خالد متخلفًا يتعرض لفتاة متوشحه بالسواد تاركه حدقات عيناها الواسعة مكشوفة تراقبُ الطريق، وتشجب قلوب العشاق الجيدين، اختلطَ على خالد نظراتها المرتبكة الواقعية مع عينِ هدير حبيبته الحالمة بغيره، راقبها وهي تبتعد، وقلبه يخفق بتسارع لم يعد يقلقه، لأنه لم

يَعُدْ يشعرُ بخوفٍ على روحه، ولم يتنبه لوجودِ الضابط حاتم زميل الدراسة القديم.

ناداه عمران وحثَّه على الحركة، والكف عن تكاسله الذي تعاظم وعن متابعةِ النساءِ، فهُنَّ هنا خطر شديد يجب تجنبه، فرجالهن لا ترحم، ولا تشفق بمن يكسر حاجز صمتهن، فالتفت إليه خالد، الآن لمح وجهًا مألوفًا، تجمد بصره على وجهِ حاتمٍ، وهو يعبر بين رجلين، أصبحَ خالد مثل شجرةٍ ضعيفةٍ وسط وادٍ أجدبٍ تصارع إعصار، تصلبت أصابعه على ما يحمله، وتجلَّطَ الدمُ في عروقه، وعمران يلعن بلادته المضاعفة اليوم، ولمّا يأسَ من دعائه تركه، وتابع طريقه متأففًا.

انتابتْ خالد كل الأحداث والذكريات السيئة، تذكرَ حاتم في أول لقاء جمعهم صدفة، وتذكر تقريعه له متجاهلًا أنه كان يحاول نصحه، تذكر سب حاتم لهدير ومقته إياها لفسوقها، وواري مبرراته المتضامنة معه آن ذاك في التراب.

نسيَ خالد أن يحملَ نفسه ويركض بعيدًا، راكلًا حاتم والماضي خلفه كي لا تفسد كل مخططاته وحاضره، ويخور جهاده، ويتحسر عليه، وهو في ظلمة السجن.

اقترب منه حاتم وهو مزروع مكانه، يجد صعوبة في لملمة جذوعه والهرب بعيدًا قدر الإمكان، حتى تمالك نفسه أخيرًا إحكام قبضته على مشترياته، واستدار هاربًا ليبتلعه الزحام.

حاتم لمحه وهو يستديرُ، تشابهت عليه تلك الملامح الحادة، وحدث نفسه بأنَّ هذا الوجه مألوف، تعامل معه في ماضي انقضى لكنه ما زالَ حاضرًا بتجهمه، فتبعه شاقًا الزحام بذراعيه، رآه خالد يلاحقه دون أن يواجه هيبة عينيه، فضاعف جهده للفرار بجلده.

عند طرفِ السوق القصي حيث باعة الخضروات يفترشون الأرض، وجد خالد جدارًا يريد أن ينقضَّ، فرمي ما يحمله أرضًا واجتازه وركضَ كأنه يتعرض للقنص، عبر حوش واسع يستخدم كحظيرةٍ للغنم، وتلوى مثل ثعبان غاضب بين البيوت حتى وجد سيارة تويوتا متوقفة، دس أصابعه في مقبض السيارة فانفرج بابها، عبث خالد بالدارةِ الكهربائية من خلف كومة من الأسلاك المتشابكة، وبحركات يسيره أدار المحرك وانطلق مسرعًا مخلفًا وراءه غيمة من ترابٍ أعمت حاتم.

تَأَكَّدَ حاتم الآن من هويَّةِ الهاربِ، وعجزَ عن إيجاد احتمالٍ ضئيلٍ يستَدْعي وجودَه في هذهِ المنطقة، اِسْتهْواه الظنُّ، وركبَه الشكُّ، ماذا يفعل خالد هنا بعد اختفائِه؟ وكيف جاءَ؟ ومَتى؟ أسئلةٌ لا حدَّ لها، إجابتُها غير جاهزةٍ، أكثر ما حيَّره لماذا فرَّ منه ولم يهْرَعْ لتحيتِه وهو يتحرَّق شوقًا للقائِه؟ لم تبرقْ في عقلِه خليةُ شكٍّ تثيرُ الظّنونَ في سوء نيَّةِ خالد، كانَ خالد رؤوفًا، طيّبَ القلبِ، ولم يظنّ حاتم أنه تحوَّل بسببِ جهلِه إلى قاتلٍ.

باتَ حاتم ليلتَه ينهشُهُ الأَرَقُ، يستدرجُ عقله ليمنحه تفسيرًا مقبولًا لما حدثَ، لقد انطلَق خالد بالسيارةِ مخلِّفًا وراءه كومةَ تساؤلاتٍ حولَه، ودون إيجادِ ما

ينجيه من ظنونِه أو تأنيبه المقرع لخالد؛ غالبَهُ النعاسُ بينما يستعدُّ الفجرُ ليحطَّ أشرعتَه، ويبحرَ في موجِ الليلِ. قفزَ إلى ذهنِهِ في الحلمِ احتمالُ تورُّط خالد في أحداث التفجيراتِ الأَخيرةِ في رفح، فقامَ مذعورًا من نومِه، يحدِّث نفسَه بضرورةِ إيجادِ صديقِهِ القديمِ؛ من أجلِ العثورِ على جوابٍ مقنعٍ منه، يدحضُ احتمالَ تورُّطه.

اصطفَّ الجنودُ المشاركونَ في الدوريَّة، وأعطى حاتم إشارة الاستعدادِ لقائدِه، فأعطاهُ القائدُ الإذنَ بالمسير، وغطسَ وسط المدرعة التي لم تبرحْ مكانَها قبلَ مغادرةِ مؤخِّرةِ القوات، أمامهم يومٌ طويلٌ، فما زالتْ آمالُهم تجدِّفُ في أحضانِهم بعزيمةٍ؛ من أجل البلوغ بالمدينة برًّا ينجيها من مَصيرِها المغلف بتلبُّدِ غيمٍ كثيفٍ.

تجوَّلت الدوريَّة وسط المدينة، قبل الانطلاق في جولةٍ خارجيَّةٍ بين الحقول المفتوحة، اعتلى حاتم المدرعةَ كعادته بدلًا من الانغراس بين حيطانها السميكة، غطَّى أنفه، وترَكَ وجهَه للهواء المحمَّل بذرَّات رملٍ ناعمٍ تُداعبُ الأجفان، رفع هامتَه، وراقب الصحراء المتاخمة بحذرٍ مضاعفٍ. مرَّ على امرأةٍ تحدِّق بهم بتوجُّسٍ، وهي تقود حمارًا نحيلًا محملًا بجريد نخلٍ أخضر، نظر خلفه ليتبيَّن مدى ابتعادِهِ عن العمران، ومدى توغُّلِهِ في الشظف، لم يرَ أيَّ عمارةٍ؛ فأدرك أنهُ ابتعدَ كثيرًا عن المدينة، لم يبقَ غير بساتين الزيتون المبعثرة على رقعةٍ ضيقةٍ أمامهم، غير مقللين من قسوتها وخطورتها، وبعض

دورٍ قليلة تبادلُهم الودَّ نفسَه، أصبحت حركتُهم بطيئةً بسبب تعرجِ مرتفعاتِ الصَّحراء، وازدياد جُحوظِ عيونِهم في الفراغ.

عند نقطةٍ محددةٍ؛ قسَّم القائدُ الدوريَّة إلى مجموعتين، وفرقهم لتمشيط مناطق أوسع، تريَّثوا وهم يفتِّشون المنطقة، فتشوا كل الدور التي تحرسُ البساتين، لَكنَّهم لم يعثروا على شيءٍ يثير الشكَّ؛ حتى رأى حاتم مجموعةَ بيوتٍ بعيده، تجثو على سطحٍ مرتفعٍ يفضي إلى منحدرٍ أقلّ ميلًا، تلتفُّ البيوتُ حول حوشٍ واسعٍ، يتوسَّطه بئر ماءٍ يمثل لهم كعبةَ الحياة، وتطوف البيوت حوله كأفواج نحلٍ تحاصرُ زهرةً بريةً، تمتص رحيقَها الطازج، وتحيطُ بهم أشجارُ (الكلمنتينا)، يحدها نخيلٌ عالٍ مثل حراسٍ أَشِدَّاء.

ترجَّل حاتم ورافقُه الجنودُ سائرين، واقتربوا من زمرةِ البيوت بتأنٍّ في خطوطٍ متوازيةٍ، تاركين وراءَهم حقلًا من آثَارِ أقدامٍ حذِرَةٍ، كانَت أحذيتُهم تخور في الرمال الساخنةِ، تلهب جباههم كأن تحتها الجمر، فجأةً؛ ظهر طفلٌ أمامَهم عاري القدمين، يحمل رغيفَ خبزٍ، وقف الطفل يحدِّقُ في الجنود، فاطمئنوا قليلًا؛ لأنه حيثُ يوجد أطفال تُوجدُ نساء، وهن لا يعشْنَ فوق قدورِ الخطر، فتخلّوا عن جمودِهم تدريجيًّا، فبدا التروض بالمكان مريحًا، وانخفضت فاهُ الأسلحة المشرئبَّة شبرًا.

فتَّشوا البيوتَ حتى اكتملَ نصابُها، بدقَّةِ جراحٍ يفتش في كبد مريضٍ عن خلايا سرطانيةٍ هاربةٍ خلف الأنسجة التَّالفة، وعندما هموا بالمغادرة اعترضت امرأةٌ طريقهم وهي تصيحُ بلهجةٍ بدويَّةٍ، وكادت أن تتعثَّر بطرف ثوبها

الفضفاض؛ لولا أن تدارَكت نفسَها وحفظَت اتِّزانَها، استدار حاتم إليها ولم يفهم منها شيئًا، فترجم له أحدُ الجنود قولها:

- "تريد مساعدة".
- "كيف علمت؟".
- "وزعنا مساعداتٍ كثيرةً في مناطق مجاورة".

بعثر حاتم بعض النظراتِ على وجهها المختمر بالسواد، ثم أمرها بالاقترابِ وهو يعود إلى المدرَّعة، فاقتربت المرأةُ، يتبعْنَها بقية النسوة والأطفال مسرورين، ووُزِّعت عليهم كراتين مليئةٌ بالطعام الكافي.

تجمعت الدوريَّةُ وقفلَ الجنودُ راجعين، لم تكن المسافة التي قطعوها قصيرةً، ولا الدوريات المنتشرة قليلةً، لكنها لم تكن كافيةً لضبط إيقاع المدن المضطربة، ولا إعادة الانضباطِ إليها، لمْ تكن رادعةً لفكر الأفراد الذين يريدونَ هدمَ عقيدتها، ولا كافيةً لِتعد بدايةً موفقةً لرحلة مداهماتٍ لن تنتهي قبل بلوغِ هدفها، وصدِّ النار التي تنبعثُ فجأةً من تحت ركامِ الحضارة، دون أن تتركَ خيط دخانٍ يدلُّ على وجودها، باشر حاتم عملَه بإتقانٍ منتظرًا النتائج.

وفي الطريقِ؛ أطلق المجندُ شهاب صوتَه عاليًا بعذوبةٍ، وردد خلفَه البقيةُ بتناغمٍ يثير الدهشة:

بالإيمان والتضحيات... ستبقي يا مصر قمرًا

تستدل به الأممُ في ليلها الحالك

وشمسًا وضياءً في نهار الحضارة

مصر يا وطني.. يا أم البلاد..

أنتِ أملي وحلمي الباقي

*

مصر.. يا بلادي..

سنبقى بواسل نحمي جباهك

عالية خفاقة رغم كيد الأعادي

فابني الأمجاد

واصنعي العزَّ

ازرعى الفخر

جنودك أبرار..

تعشق أملًا يحفظ مكانتك بقمة المعالي

*

أبي أوصاني أَلا أجبن

أو أخاف ردى الأهوال

وأشهد دمائي تسقي نبتَ بلادي

ليزهر عملًا

يطرح نصرًا

يثمر نصرًا..

يثمر نصرًا..

تعبِّئُ نفحاتُ الفجر الأجواءَ بعبقٍ منعشٍ، ونسماتٍ رقراقةٍ تجوب صدورَ السائرين في الظلام إلى صلاة الفجرِ ؛ لِتَنعمَ بسَكِينةٍ تنسكبُ إليهم مثل نورٍ يتسرَّبُ داخلهم، فيضيء عتمتَهم، على الرغمِ مِن مجانيَّة تلك العلاجاتِ؛ إلا أنَّ معظمَ الناس نيامٌ، تكافح كوابيسَ تنتابها ليلًا، وتتركها نهارًا مشتتة الأفكار، فتبدو كأنها منفيةٌ خارج وطنِها، ويعشعش في أَركانِها الخراب والثكل.

في ضواحي رفح؛ أُقيم حاجزٌ أمنيٌّ مؤقتٌ، قسمَ أَفرادُه أنفسَهم إلى مجموعتين؛ إِحداهُما تقيم الصلاةَ، والثانيةُ تحرس الحاجز، ثم يتبادَلونَ الأدوارَ بعد فراغ الأُولى من تأديَةِ الصلاة، ثم يعود بعدها الجميعُ إلى أماكن حراستهم، خلال نوبة الصلاة الأولى برزت مجموعةٌ معاديةٌ من خلف ستار الظلام، تنزُّ شررًا محملًا بالكراهيةِ والْعداء للجنودِ الساهرة على حمايَةِ وطنهم بفخرٍ، تحدق عيونهم في ناحية واحدة، ظهر شعثُ شعورهم، كأن قُفِيَّهم العريضةَ المتربة تيمَّمت بالتراب، هاجموا أَفراد الحاجز، فَأطلقوا عددًا مِن قذائفِ الهاون من مدافع يُديرُها جهلُ عقولهم بسببِ فكرٍ ضالٍّ، أصابت طليعةُ القذائف المدرعاتِ المتصدرةَ الحاجز، ثم انهالَ عقبها الرصاصُ على الجنود كسربِ طيرٍ غاضبٍ يضرب بشراسة.

تَدافَعَ جميعُ أَفراد الحاجز لصدِّ الهجوم، واستبسلوا أمام تقدم القوات المعادية، وَاجهوهم بحزمٍ وشجاعةٍ، كارهينَ الموتَ قبل التخلُّصِ من تلك الخفافيش العابثةِ بالحياة، التي تهاجمُ وتفرُّ مثل ضبعٍ أجرب، أقصى طموحِه أن يسلبَ قطعة لحمٍ

من فريسَتِه، أظهر الجنودُ قوتهم، وفضَّل المعتدون القتالَ ابتغاءَ الموت، معتقدين أن الحياةَ تُعيقُهم عن دخولِ الجنةِ، كما يزعمُ من يحثُّهم على الفسادِ، متخذًا عقولَهم وعاءً لِحُثالةِ أفكارِه، وتحقيق أطماعهِ، بعد استمالتِهم بشتى الوسائلِ الدينيَّة، ورغباتِ هوى نفوسِهم الضالة.

افترشت النيرانُ المكانَ، وانفجرت سياراتٌ عديدةٌ، وقُتِل بعضُ الجنود والضباط، وفَقَد بعضُهُم أطرافَه.

واصَلَت قواتُ الحاجز الْقِتالَ، واستماتَ المصابونَ منهم بجراحٍ بالغةٍ في الدفاع عن مواقعِهم، حتى نجَحوا في صدِّ الهجوم، بعد تساقط أَعدادٍ كبيرةٍ من المُعتدين.

حلقت الطيورُ حزينةً في سماء مكتئبةٍ، فاقدةٍ الحيوية، وحامت فوق الحاجزِ مكوّنةً دوائرَ كبيرةً متداخلةً ذات جلالةٍ، تعلو وتنخفض بوتيرةٍ واحدةٍ، مصاحبةً بزوغ الضياء، وجلاء العتمة، بينما ما زالَتْ ألسنةُ النيرانِ مشتعلةً، يعبّر وهجُها الأحمرُ عن مرارةِ الفقد، والحزنِ الدائر بقلوب الجنودِ الذين شهدوا جريمةَ موتِ زملائهم.

كانت عقولُ المعتدين الحاقدةُ ملقاةً، وقد هانت عليها نفسُها، تفترشُ الأشلاءُ الأرضَ بدمائِها، فغطى اللونُ الأحمرُ المكانَ معلنًا جريمةً بشعةً بحقِّ الإنسانيَّةِ.

هبَّ حاتم مع استنفار الكتيبة عند تعالي أصواتِ إطلاقِ النيران على الحاجز، استقبلوا الهواءَ بصُدورِهم العارية، فَرأوا أَلْسِنةَ النيران تصعدُ إلى السماء، لم ينتظر

أحدٌ أمرًا بالتحركِ لنجدة قوات الحاجز القليلين. وقبل وصولهم كانت الصحراءُ قد ابتلعت قواتِ المعتدين المتبقية، حيث لا تطالُهم يدُ القواتِ النظامية، فطوَّقت القواتُ محيطَ المكان وأمَّنته.

لم تدم المعركةُ طويلًا، لقِيَ سبعةُ جنودٍ وضابِطَين حَتْفَهم، وأُصيب البقية بجروحٍ بالغةٍ، وفقد المعتدون عددًا كبيرًا منهم، ولولا فرار البقيةِ لانتهوا جميعُهم إلى القبور.

ساعد حاتم مع القوات المنتشرة بالمكان على انتشال الجرحى والمصابين؛ لنقلِهم لتلقِّي العلاج، وحَفظوا الجثثَ داخل أكياسٍ بيضاء.

كُوِّمت الجثثُ ذاتُ الوجوه الغريبةِ الخائنةِ فوق بعضها كالحصى، وصُنِعت منها تلةٌ صغيرةٌ، بدت تنِّينًا نائمًا في العتمةِ، يتساقط عليه ندى يرطب جلدَه المهترئَ من حرقةِ لهيب الشمس طيلة حياتِه الطويلة، لكنهم لا يتنفسون، أمواتٌ كما كانوا دومًا دون أن يشعروا، ودَّ حاتم لو يحرقُهم دفعةً واحدةً، أو يجرفُهم في دُرْجِ حفرةٍ عميقةٍ، ويهيلُ عليهم الترابَ؛ عقابًا لهم، وترهيبًا لمن تسوّل له نفسه معاودةَ الهجوم على أفراد الجيشِ. نظر إليه قائدُه بحنقٍ كتمَه، ورمقه مؤنِّبًا؛ لأن أخلاقَ الجيشِ المصريّ تمنعه من التمثيلِ بالجثث، وواجبه يحتِّمُ عليهِ ضبطَ النفسِ، وكظمَ الْغضب؛ كي يتخذَ القرارَ الصائب.

صدر أمرٌ للجنود بنقلِهم إلى مدينة العريش، فغادرت الشاحنة التي تحملهم صوب مدينة العريش، يعتلي ظهرَها جنديان يراقبان الجثث؛ خيفَةَ أن تعودَ للحياةِ، وتنقض عليهم، وتشرع فيهم قتلًا، تاركين أمنَ الطريقِ لجنودٍ غيرِهم.

استمرَّ تنظيفُ المكان حتى توسَّطت الشمس كبد السماء، واشتدَّ قيظُها، بدت السماءُ ترعد حزينةً وسط النهار، تتكاثف فيها غيومٌ لن تسقطَ مطرًا مسرورًا، بدا أن هذا النهارَ سوف يكونُ طويلًا، وسوف يمرُّ كسنواتٍ مليئةٍ بآسى مُرٍّ، تحت لهيبِ الشمس التي تحرقُ معززةً وحشةَ الصحراء.

تصلَّب حاتم وسط الحاجز المحترقِ مثل قذيفةٍ لم تنفجر، مغروزةٍ في الأرض، لا يخشى سوْأَتها، وفكر بعجلٍ في الأمر، ثم انخرطَ ثانية في الحركة التي تضجُّ حوله.

تدحرجت الشاحناتُ التي تحملُ الشهداء بين ممراتٍ وعرةٍ، قبل أن يستتبَّ لها الطريقُ المتكسر، الممهدُ زمن احتلالِ إسرائيل لسيناء، وقد عاش شاهدًا على أيامِ الاحتلال وأثره، تهدرُ محركاتُ الشاحناتِ بعنفٍ، حانقةً من بِرَكِ الموت التي تمرُّ حولها، طرقٌ خاليةٌ، وجدرانٌ مهدمةٌ، وبيوت مهجورةٌ، ونساء ثكلى، تسحقُ الصخور تحت وطأتِها، وتذرها للريح، علها تردمُ بركَ الموتِ، وتَمحو أَثَرها.

تسير معها مدرعتان للحراسة، معبَّأتان بجنودٍ ملثمين، يصوِّبون أسلحتَهم نحو الظلامِ والمجهول، بعد أكثر من نصف ساعةٍ من السير الوئيدِ؛ ظهرت أولُ قريةٍ

مهجورة جزئيًّا، تشي بأن المدينة بنَتْها على أعتابها لتستطلعَ حركة الأعداء، وتكشفَ الغرباءَ قبل اقترابهم، تأملت القافلةُ خرائبَها التي بدت عجائبيةً وخلابةً، وقد كُتِبَ على أحد أركان صخرةٍ ملقاةٍ على جانب الطريق بخطٍّ شيطاني: "الويل لكم! لمن الويل اليوم؟!". تجاوزوها ووصلوا بسلامٍ ساحةً عسكريةً، تنتظر فيها سياراتُ الإسعافِ لاستقبال الشهداء.

بدت مدينَةُ العريش والسيارات خارجة منها كَأَنها تحلمُ بإحلال سلامٍ على أَرْضها لم تعرفْه منذ إنشائِها، كأن لم يدخلْها غيرُ صليل الخيولِ، وسنابكِ العسكر، ولم يطأ أرضَها غير جنازير الدبابات وإطارات المدرعات الحربية، مدينةٌ سكنها الموتُ، وغَزَتْهَا الانفجاراتُ المدويةُ التي يصلُ مداها إلى حدودِ العالم الجديد، وأخرى لم تُكتشفْ بعد.

كلُّ مَن مروا مِن هُنا أطلالُهم حاضرةٌ؛ الرومان، والفرس، والعرب، والصليبون، والمماليك، والترك، وجيشُ الصهاينة، مخيفةٌ هي ليلًا، ومرعبةٌ نهارًا، مهيبةٌ لكنها تنشر السكينةَ في النفوس، معجونةٌ من مزيج تناقضاتٍ بمياه البحر المالحةِ، ورمال الصحراء الناعمة، وبخليطٍ من رائحة التَّمر والزيتون.

تحولت المدينةُ الآن إلى ما يشبهُ سكنةً عسكريةً مشددة الحراسة، تحاوطُها الأَسيِجة من الاتجاهاتِ الأربعة، وانتشرت الحواجز الأَمنيةُ بكل الشوارعِ والميادين الرئيسَة، وأصبحَت الإقامةُ بها مغلفةً بالخطر، بسبب السياراتِ المفخخةِ التى يقودُها سائقٌ عابثٌ بالحياة، أو بسبب التعرضِ للحرق حيًّا فوق

سنانِ الجهل. تجاوزتها القافلة ببطءٍ تجنبًا لإزعاجها، ووصلت كوبري السلام، فاستقبلَها الموظفون والقواتُ المكلفةُ بالحراسة بالْإجلالِ والتحيةِ العسكرية، بحرقة أبٍ فقدَ أولادَه وضاع وطنُه، عبروا قناةَ السويس حاثِّين الخطى لإيصالِ الأمانة إلى أهلها.

***

توقَّفَت سيارةُ نيسان قديمةٌ داخل حاجزٍ أمنيٍّ متنقلٍ، أقامته الشرطةُ على أطرافِ مدينةِ بئرِ العبد، كتدبيرٍ احترازيٍّ، وإمعانًا في تشديدِ الإجراءاتِ الأمنية المتَّخذة على أثر الهجوم، بداخل السيارة يجلسُ عمران إلى جانبِ السَّائقِ علي، سُحبت منهم بطاقاتُ الهوية لفحصِها مثل بقيةِ العابرين، لم يُظهِر وجهُ عمران علامةَ قلقٍ أو ارتياب، عكس علي الذي ارتعشَ صوتُه وبدا مضطربًا بعضَ الشيء، فَحْصُ بطاقاتِ الهوية حتمًا سيَفضحه، وإلا ما حاولوا المرورَ من الحاجز كمواطنين شُرفاء، اكتشفَ الحاسبُ سوابق تُشِينُ عليًّا، ففتَّشوا السيارةَ، وعثروا على ظرفِ رصاصٍة فارغٍ خلف مقعَدِ السائق، فتحفَّظوا عليهما داخلَ جوفِ مدرعةٍ، ثم اقتيدوا بعدها مع مشتبهينَ آخرينَ إلى قسمِ شرطةِ المدينة.

موقعُ القِسمِ مفتوحٌ للعيان، رغم ذلك يحفُّ طريقَه غيمٌ يغلفُه كفقاعةٍ رماديةٍ، فإن تجاوزَ الزائرُ الحاجزَ الأمنيَّ عند ناصيةِ الشارعِ المقفل المؤدي إلى مبنى قسمِ الشرطة؛ سيجتازُ البوابة دونَ معوقاتٍ تذكر، يتبقى دخولُ المبنى المكوَّن من طوابق عديدةٍ.

في غرفةٍ مظلمةٍ تقعُ في نهايةِ ممرِّ الطابقِ العلوي، مصباحها المعلَّقُ أمام بابِها مطفأ حتى إشعارٍ آخَر؛ قُيِّد عمران مكبلَ العينين على كرسيٍّ معدني، أمامه طاولةٌ معدنيةٌ مستطيلةٌ، يقعدُ خلفها العقيدُ سعيد الألفي من الأمنِ الوطنيِّ بجسدِه العريض، وطولِه الباسق، وملامحِه القاسِية، عقلُه محتقنٌ بالمكر، عيناه مكتنزَةٌ بالدهاء، ترنَّح جسدُ سعيد قليلًا، ثم مالَ إلى الأمامِ محدقًا في عمران من خلفِ السواد، ثم حكَّ ضبَّتَه بظهرِ راحته، ووضع قدمًا على قدمٍ، وأسند ظهرَه إلى كرسيه، وأسدلَ ذراعَيه على فخذِه، وحافظَ على صمتِه، يحصي أنفاسَ عمران الضجرَة، منتظرًا الفرصةَ المواتية ليباغتَه بالحديث.

يخيِّمُ صمتٌ شديد الوطأةِ في صخبِ ظلامٍ دامسٍ ومخيف، يعجُّ بشرورِ القفارِ المحيطة، يتسترُ به سعيد، ويحاصر بهِ عمران الذي شعرَ بأن هناك عينًا تحدِّقُ بِه بازدِراء، لم يخنْهُ غرورُه الساذج، وجاء صوت سعيد من خلف الظلامِ مؤكدًا:

"ليس سيئًا أن تصبحَ صديقًا لأعدائِك".

لم يظهرْ عمران البغضاءَ؛ لأنه يعرفُ أن عذابَه ثمرةُ اليأسِ والتعصبِ التي ارتضى ريَّ شجرتِهما، رفع رأسَه، ونفخ صدره، متأهِّبًا لعراكٍ لا يجيءُ، ويدٍ تمتد إليه لصفعِه ولم تفعل، فرفعَ رايَة عنادِه، وأعلن التمردَ على حاكمٍ قوانينُه مَا زالت مجهولةً، ولا ينوي إجبار شعبهِ على اعتناقِها دينًا لهم.

لم ينبس عمْرَان بكلمةٍ تُتَّخَذُ إجابةً، كأن المخاطبَ شخصٌ آخر لا يعنيه، غابت الأصواتُ حتى صدحَ صوتُ العقيد سعيد مرةً ثانيةً أكثر قوةً، مُؤَكِّدًا ما قالَه:

"أَلا توافقُني الرأيَ يا عمران؟".

رغب عمران بإلحاحٍ بحكِّ رقبتِه، وفك وثاقِه؛ كي يتمكنَ من رؤيةِ وجهِ المحقق الذي أرعبَهم شهورًا، وتحوَّل إلى شبحٍ أسطوري، كأنه رجلٌ من زمنٍ آخر هبط من كوكبٍ خارج المجرةِ، لا يخضع لدستورِ الزمن، قصرت مدةُ الصمتِ هذه المرة، ولم تخترقْه أصواتُ الحشرات التي تعجُّ في المكانِ، ولا نقيقُ الظلام. أجابَ عمران:

- "العدو لا يمكنُ أن يصبحَ صديقًا، فكرهُه للآخرِ سيبقى متأصِّلًا فيه".
- "العاقلُ لا يأخذُ خلافَه مع شخصٍ ما على أنه مسألةٌ شخصية، محولًا هذا الخلافَ إلى عداوةٍ".
- "أنا أعرفُ ما في صالحي، وكيف أصيدهُ، ولا أحتاج مساعدةً من عدوي".
- "عدَّ هذه الصداقةَ ضرورةَ عملٍ مؤقتٍ".
- "لا شيء قد يربطني بعدوٍّ أبغضهُ".
- "ما زال عقلُك يعجُّ بالضجيجِ، أما آن لهُ النضوج؟".

ابتسم عمران بسخريةٍ من كلماتٍ وصلته وسط عتمةٍ مصمتةٍ لا يعلم كيف يفَكّكها، وأجابَ دون إطالة صمتٍ:

- "لقد نضج منذ زمنٍ بعيدٍ، لكنك لا ترى بسبب الظلامِ".

حدق عمرانُ في الظلام بزهوٍ، كأنه فاز بمناورةٍ تحددُ مصيرَهُ. تجاهلَ العقيد سعيد تغيُّرَ نبرته، وعادَ بالحديثِ إلى أوله:

- "أليس ضروريًّا إبقاءُ عدوكَ بالقرب منك لتختلجَ أفكاره، وتكتشف كيف يفكر، وما يحيكه ضدك؟".

- "ومَن يقبل صداقةَ عدوه؟".

- "من الذكاء أن توهِمَ أعداءَك بحسنِ نواياك تجاههم، مع إخفاء نواياكَ الحقيقية".

- "نفاق!".

- "وهل من الوفاء إظهارُ كرهك للآخرين؟ يُحسَمُ الصراعُ بالحيلة، ويعم السلامُ بالخديعةِ".

- "الشجاعةُ والقوة أفضل لفضّ أي نزاعٍ".

- "الشجاعة هي القرار الذي يجنبُك نزاعًا يعقبُه صراعٌ مريرٌ".

- "هل تحاولُ إقناعي باكتسابِ صداقتِك؟".

- "لا".

ثم استطرد:

- "أَلا تحتاج إليَّ للخروج من ورطتك هذه؟".

- "أتخدعُني بمكرك! إنه لا ينطلي عليَّ".

تنهد العقيد سعيد، وتنفَّس عميقًا كمن ينتابُه اليأس، ظن عمران سكوتَه دليلَ إحباطهِ، فانتفش طاووسُ غرورِه داخلَه، وشعر بالغبطة.

وقفَ سعيد مِن مكانهِ، وارتطمَ وَقْعُ حذائِه فوق بلاطِ الغرفةِ، يضيف إليها بُعدًا كَئيبًا، ودار حول عمران مرَّتين، ثم رجع مكانَه، وقعد على الكرسيّ، وظل صامتًا لحظاتٍ.

- "أنا لا أحاولُ خداعك".

- "لن أبوحَ بحرفٍ واحدٍ".

- "لن يجبرَك أحدٌ على البوحِ! ولم يُطلب منكَ الاعتراف!".

تمتم عمران بنفادِ صبرٍ، وتبرَّمَ، وضمَّ حاجبَيهِ اللذين لطَّخهما الظلامُ، وقال:

- "إذن؛ ماذا تريد؟!".

- "إذن؛ ماذا أريد!".

ردد سعيد جملتَه ببطءٍ ورتابةٍ، وهو يطرق الطاولةَ بأطرافِ أصابعه، دفع كرسيَّه برويةٍ إلى الوراء، فأصدرَ صريرًا مزعجًا، وأضاء مصباحَ الغرفة، وقال وهو يقتربُ منه:

- "ماذا أريد منك؟".

وعندما حاذاهُ؛ مالَ عليه، وهمسَ في أذنه:

- "لقد نظرتُ في عينِ عشرات المتهمين، وكلهم ادَّعوا البراءَةَ، من بينهم جميعًا عيناكَ هي الأكثر ثقةً، لكنني أجزمُ أَنها تخفي وراءَها قلبًا جاحدًا، فلا شك أنكَ قاتلٌ".

صمت العقيدُ، وعدَّل جلسَتهُ، ثم أكمل:

- "علمتُ أنك لن تقولَ شيئًا، لكن اليوم لن يفلتَ أحدٌ من العقاب، وإن تطلبَ الأمرُ أن أُطاردَكم جميعًا بنفسي".

ربتَ سعيد على كتفِ عمران الأيمنِ بيدِه اليسرى، ثم أمسكَ طوقَهُ، وأحكمَ قبضته، ولكمَه بقبضةِ ذراعِه الأيمن، ثم فكَّ وثاقَه، فتلمَّس عمران طريقَه ناحية الباب المغلقِ من الداخلِ لمحاولة فتحهِ؛ كنوعٍ من الاستنجادِ بأعدائِه، بعدما سمعَ طرقًا على البابِ من الخارج.

لم يمنعه سعيد، وراقبَه بهدوء، يهشمُ كبرياءَه المعاندَ في كبرٍ لا مبررَ له، وهو يمدَّ يدَه ويفتحِ الباب لنجدته من تجشئِه المباغِت، اقتحمَ ضابطٌ الغرفةَ، وأضيئَت الأنوار، وتفقدَ حالةَ عمران، وحدَّقَ بنظراتٍ تستهجنُ فعل سعيد وتعاتبه.

همَّ الضابطُ بإخراجِه مِن الغرفةِ، فأمره سعيد بلهجةٍ حازمةٍ بالبقاء، ثمَّ خرج، ولجَ غرفةً مجاورةً يتكورُ السَّائقِ علي فيها، يسفح دموعًا حارةً، ويحاول عبثًا تجفيفَها براحته، يعلو وجهَه شحوبُ الجوع، وطولُ السهاد يغبشُ بصرَه، أمرَه سعيد بالوقوفِ، وجرَّه من طوقه خارجَ الغرفة، وجعله يقرفصُ أمامهُ مثلَ تلميذٍ ينتظرُ قرارَ تأديبه.

عاد سعيد إلى غرفةِ التحقيقِ، وأمر الضابط بإبعادِ عمران، مر من أمامِ علي الذي ازدادَ ارتجافُ أوصالِه من رؤيةِ المشهدِ، حينَ شاهد عمران كادَ يظنُّ أنه قد ماتَ، لولا أن عمران فتحَ عينَيه وأغمضهُما في أثناء ابتعادِه، أرادَ علي الصراخَ بأعلى صوتِه المتهدج، وتلاشت رغبتُه بالبكاء، وبعد لحظاتٍ اقتادوه إلى الغرفةِ التي خرج منها عمران، بعدما خلا الممرُّ المتعرجُ مِن المارة، أقعَدوه على الكرسي مكانَ عمران، قيَّدوا معصميه خلفَ ظهره، سَمع علي وقعَ خطواتٍ تبتعدُ، ثم أُشعل الضوءُ كاشفًا عن وجهِ سعيد المبتسم عند الباب، فعدَّ ابتسامتَه مبررًا أدعى للخوفِ، ودليلًا على فسادِ النيةِ، فحاول علي البقاءَ ساكنًا كي لا يعطيه مبررًا آخر للغضبِ، كانَت نبضاتُ قلبه تهتزُّ من وقعِ اقترابِ خطواتِه.

يقعد عليّ على الكرسي قلقًا من هاجس اضطرابِه المذعن له، يلعقُ خوفَه الذي يجاهدُ لِإخفائِه، وعيناهُ ذابلتان تقاومان تأثيرَ نعاسٍ لم يباغتْهُ بعد، وعطشٌ جامحٌ يضاعف إرهاقَه وهمَّه الذي يزجيه الحبس، وضياعَه وسط تخاذلِ انتباهِه المتشنج، وبين خدرٍ ما يصيبُه، وأفكارٍ أخرى بائسةٍ؛ علمَ بضرورةِ تماسكِه، والظهورِ بمظهر القويّ شديدِ التحمل، بدهاء أكبر من صاحبِه، لكن حيلتَهُ لن تنطلي على سعيد الذي وقفَ ألف مرةٍ أمامَ أمثاله.

قال سعيد وهو يقتربُ منه، بصوتٍ موحدٍ مشحونٍ بالود، وعاطفةٍ غائبة:

– "نتأسفُ لسوء التفاهمِ غير المقصودِ الذي بدر منا".

حرره من قيدِه، وصافحَه بودٍّ حقيقيٍّ؛ ليفوز بقلبه المشدوهِ؛ مستغلًّا فوضى شعورِه، ثم استطردَ:

– "ماذا تشرب؟".

لم ينبسْ عليّ بكلمةٍ، ظن أن إجابتَه قد تورطُه، فأعاد سعيد الهادئ البشوشُ سؤالَه بمزيدٍ من التوضيح:

– "ماذا تشرب يا علي؟".

تمالك عليّ خوفَه، وتحاشى النظرَ مباشرةً إلى عيني سعيد، وأجاب:

– "لا شيء".

- "لا؛ يجبُ أن تشرَبَ شيئًا كي تهدأ، أنا أُصِر".

استدعى سعيد الحارسَ المتأهبَ خلف الباب، فدخل وهو متحفزٌ للعراك، طلبَ منه بأسلوبٍ مهذبٍ أن يجلب لعليّ كوبًا من عصير الليمونِ. بعد انصرافِ الحارسِ؛ واصَلَ سعيد الحديثَ ليطمئنَه، ولِيهدأ بعد اضطرابٍ وخوفٍ، حتى يباشرَ مهمتَه.

- "اهدأ يا علي، نحن نعلمُ أنك غيرُ متورطٍ".

لم تفلح تلك الكلماتُ في إخراج عليٍّ من سكوتِه الطويل، فاستطردَ سَعيد شارحًا:

- "أعدُك بعدم أذيتك، لن نعاملَك مثلَ عمران!".

أحدثَت جملتُه الأَخيرَةُ وقعًا جيدًا في نفْسِ علي، وبرقت عيناه باطمئنانٍ مشوبٍ ببقايا شكٍّ قديمٍ، حاول إخراجَه من صدرِه، ونفيَه بعيدًا؛ ليقنع نفسَه بخلو الغرفة من المُنغصات، ليحل سلامٌ دائمٌ بينه وبين العقيدِ إلى أن يفلتَ منه، وتحدث أخيرًا بصوتٍ خفيضٍ يشبه الهمسَ، بنبراتٍ مترددةٍ يفوحُ منها الندمُ:

- "أنا تجنبتُ تجارةَ المخدراتِ منذ خروجي من السجن، ولم أرتكب جرمًا".

- "أعلم يا علي! من قال إنكَ مجرمٌ، أنت رجلٌ شريفٌ".

دخل النادلُ غرفةَ التحقيق، يحمل كوبَ عصيرِ الليمون، أودعه الطاولةَ، وخرج مسرعًا، نظر علي إلى الكوب بتمعنٍ دون أن يجرؤ على لمسِه، فحَثَّه سعيد على تناولِه، فرفعَه عليّ، وتجرعَه بنهمِ ظمْآنٍ لا يرتوي.

ابتسم سعيد بدهاء بينما كانَ علي يشربُ الليمونَ عن آخره، وقال يثبت هدوءَه:

- "صديقُك أجبرَنا على التعاملِ معه بقسوةٍ، الثقة ضروريةٌ لحفظ كرامة الأنسان، لكن عندما تضر صاحبَها تصبح غباءً وغشمًا".

- ...

نظر عليّ إلى الفضاءِ كأبلهٍ لا يعي ما يحدثُ حولَه، كأن الأمر لا يعنيهِ، أو لا يستوعبُه، فأكمل سعيد:

- "أريد منك تقريرًا مفصلًا عما تراه حولك من أمور غريبة تثير الشبهات".

- "سعادتك؛ أنا أعملُ بكدٍّ لإطعام أولادي، ولا أستطيع الإبلاغَ عن شخصٍ لمجرد أني أشتبهُ به، أو أشكُّ في تدينِه".

- "إبلاغُك عن شخصٍ مشتبهٍ به ليس دليلًا على تورطِه، نحن نتحققُ من الأَمر، ونحددُ إن كان متهمًا أم لا".

- "لا أستطيع! لن أقدرَ على فعل ذلك، فأنا رجلٌ منكفئٌ على نفسي".

- "إن ما يحدث حولك لن يتركَك تعيشُ بسلامٍ كما ترغبُ، فكر جيدًا، سوفَ تخدمُ وطنَك".

- ...

- "ماذا تشرب؟".

- "يكفي ما شربت".

سكت عليّ دون شكرٍ متعمدًا، وغرق في صخبِ ورطتِه، وقلبه يبتهلُ ويدعو اللهَ كي ينجيهِ من السجن، مقابل توبتِه وتكفيرِ ذنوبِه بعد خروجه سالمًا من هذا المكان.

- "هل أطلبُ لك قهوة؟".

- "شكرًا".

- "أنا أصر، كيف تشربُ قهوتك؟".

- "مضبوطة".

بدأ عليّ بارتشاف القهوة، واجهَهُ العقيدُ سعيد بمصيرِ عمران، وصمتَ كي يرى مدى تأثير ذلك فيهِ؛ كي يقبلَ التعاونَ معه، فلم يسفر الصمتُ عن شيءٍ، فأضافَ سعيد:

- "سوف يُسجَن لأنه رفضَ التعاونَ معنا، أليس من المشين أن يرفضَ شخصٌ ما مساعدةَ وطنهِ!".

ثم وجه نظرَه نحو علي المنهمك بشُربِ قهوته، فخاطبَه مرةً أخرى:

- "أليس كذلك يا علي؟".

أنهى علي ما تبقى من قهوتِه، وأكل البنَّ المترسبَ في قاع الفنجان، وهز رأسَه بالإيجاب.

فأراد سعيد أن ينهي اللقاءَ جانيًا ثمارَه.

- "أتحب أسرتَك يا علي؟".

- "نعم؛ ومن لا يحب أسرته؟".

- "الكثير يا علي، هناك من يبغضُ أهله ويقومُ بقتلهم كما نرى هذه الأيام".

ثم أردفَ:

- "أمك -شفاها اللهُ- علاجُها مكلفٌ، وأبوك -أمدَّ الله في عمرهِ- لا يقدرُ عَلى تحملِه".

ثم استطردَ:

- "هل أنت عائلُهما الوحيدُ يا علي؟".

- "نعم".

- "أعانك الله".

توالت المشاهدُ والذكرياتُ الجميلةُ التي لن تُستعاد يومًا، وربما لن تواتي عليًّا فرصةٌ أخرى للجلوسِ على حافة الذاكرةِ واسترجاعها، وسط جلسةٍ عائليةٍ مباركةٍ. تحدث سعيد بودٍّ حقيقي، فانتابَ عليًّا شعورٌ حسمَ موقفَه بوجوبِ خفض راياته الخفاقة، وإشهار أخرى بيضاء ناصعةٍ، فلا التحدّي يُجدي، ولا السُّكوت ينجي من هذهِ المِحنة. تهاوَت دفاعاتُه، وهُدِمَت صوامعُ قلاعِه، وطلَّ من خلفها أطفالٌ تبكي، ونساء ثكلى، وعجائز تودعُ الحياةَ بصحةٍ جيدةٍ، طلب منه سعيد أن يمدهُ بمعلومةٍ وحيدةٍ كافيةٍ لتكون حجةً له كي يفرجَ عنه بغير شرطٍ.

- "معلومةٌ واحدةٌ مفيدة يا علي، واحدةٌ، وتمضي حرًّا".

- ...

- "إن كنتَ تحاولُ حماية أحد أقاربكَ؛ فنحن نحمي دولةً كاملةً مليئةً بِأُناسٍ أبرياء، نحميهم دون تمييزٍ، بما فيهم أنت وعائلتك".

فشلت مقاومةُ علي، واستسلمت أحلامُه بعبور حقل الأمن الشائك، والعودةِ إلى بيته غانمًا معافى، تسربلَت الكلماتُ منه كماءٍ رائقٍ من عَلٍ، ونفخَ بفمِه أضعافَ ما رفضَ في البداية البوحَ به، وأكثر مما طلبَه العقيد سعيد ويحتاجُه، وباحَ

بِأسرارٍ وخفايا أُخرى فقدت أهميتَها، ثم التقط سعيد منه معلومةً واحدةً كان يبحثُ عنها منذ أكثر من عامَين، كافيةً لتَقي الشمالَ ويلاتٍ كثيرةً تُحاكُ له في الخفاءِ.

التهم العقيدُ اعترافاتِه المسجلةَ من بين شفتَيهِ الغليظة، لم يهمه منها غير المنزلِ البعيدِ الآمِنِ الذي يختبئُ به أبو عمران، والغرباءُ من الوادى، لم يجهر علي صراحةً بوجودِ علاقةٍ تربطهم بالهجماتِ المسلحةِ التي تطالُ الجيشَ والمدنيين، لكن المحققَ المتمرسَ علم بخبرته وجودَ صلةٍ بينهم وبين الهجماتِ الأخيرة، تحفَّظ على علي إلى أن يتأكدَ من صحةِ معلوماته، ووعدَه بمغادرةِ المبنى إن ثبتَ عدم تورطِه في شيء.

لم يَترك سعيد اعترافاتِ علي، ولا المعلوماتِ التى ترتبَت عليها لتختمر، وقرر شواءَها فوق النارِ مباشرةً؛ لتتبخرَ الأحجياتُ الغامضة المكتوبةُ بحبرٍ من ركامِ الخرابِ المعجون بالدم، طرحَ العقيد سعيد المعلوماتِ الجديدةَ أمام رئيسِه الذي جادله فيها، وأجَّلَ اتخاذَ القرار بشأن مداهمةِ المزرعةِ التى يختبئُ بها خالد وأَبو عمران وأَتباعُه؛ لإجراء مزيدٍ من البحث والتحري خلال هذا الوقتِ، فتسرب إلى سعيد صداعٌ عازمٌ على هدمِ أفكارِه، وربما أشياء أُخرى؛ بسبب خوفِه من تأخيرِ المداهمةِ وقتًا أكثر من اللازمِ.

اتُّخِذَ القرارُ بعد يومين، وأمر بتشكيلِ قوةٍ من قواتِ الجيشِ والشرطةِ لمداهمة المزرعةِ، والقبضِ على جميع العناصرِ المشتبه بها، بإشرافِ العقيدِ وجدي، وهو ضابطٌ بالجيش.

اختير حاتم بين الضباطِ المنوط بهم تنفيذ المهمة، وشُكلت الفرقةُ سريعًا، خطتُهم بسيطةٌ، الدخول عند إشارةِ البدْءِ، والقبضُ على المطلوبين، وتفتيشُ المكان بدقةٍ؛ للعثور على أي شيءٍ ممنوعٍ، خطةٌ بسيطةٌ جدًّا، لن يستغرقَ الشروعُ فيها وإنهاؤُها أكثرَ من نصف ساعة حسب الجدولِ الزمني الموضوع داخل المكاتبِ المكيفة.

موعدُ التنفيذ في وضحِ الشمس، وقت بدءِ الأعمال المكدسة فوق عاتقِ النهار، ويقظةِ الانتهاء من الأَعمالِ العالقة، ارتدى الضباطُ ستراتٍ تقيهم الرصاصَ والغضبَ المتطاير، واستقلوا سياراتٍ مجهزةً ومدرعاتٍ، مضت الفرقةُ تشقُّ الأرضَ بخفةٍ متناهيةٍ كاتِمين وجهتهم، يستطلعُ الضباطُ كلا الجانبين بانتباهٍ مريبٍ، وحذر مستميتٍ، وتطل فوهاتُ أسلحتهم من خلفِ النوافذِ الملونة بلون الظل.

عند اقترابهم من المزرعةِ؛ خفَّفَت السياراتُ سرعتَها، وسارت على مهلٍ، حتى توقفَت على مقربةٍ من نهاية مسارِها المحدد على الأطراف الشرقيةِ للمزرعة، حيث يمكنُهم من هنا رؤيةُ مجموعةِ البيوت وسطها، ترجلت الفرقةُ في صمتٍ تعبِّرُ عنه كثرةُ التلويح بالأيادي.

يتربصُ بهم خلفَ هذه الجدرانِ ما لا يعرفونَ، وقد جاؤوهم أول النهار كموتٍ يختبئُ خلف تلٍّ صغيرٍ لعابر سبيلٍ ضل طريقَه، وهم واثقون من النجاحِ وثوقَهم من شروقِ الشمس بعد بزوغِ فجر ليلٍ مسرور الأسارير، تمتمَت الفرقة بخشوعٍ

أدعيةً وأذكارًا على عجلٍ قبل الهجوم، وأسْدَلوا الأقنعةَ المطليةَ فوق جباههم، فلم يبرز من وجوهِهم إلا العينان، وسيماتُ البأس، وعزيمةُ البقاء.

لم يتنبأ أهلُ المزرعة، ولا أبو عمران الغائبُ بعيدًا عنها، قبل الآن بالمداهمةِ، لكن أَتباعَه رَأَوا القوةَ القادمة لاستئصالِ شأفتِهم، كان خالد أولَ من حذَّرَهم من تحركٍ غريبٍ حول المزرعةٍ، فتبعثروا يمنةً ويسرةً كبهائم تطاردُها قبيلةٌ من الأسود، حملوا أسلحتهم، وتمركزوا وراء جدران البيوتِ كأنها حصونٌ مشيدةٌ لمثل هذا اليوم، وانتظروا مصيرَهم.

أَسرعت الفرقةُ بالهجوم، فتوجهت نحو مجموعةِ البيوتِ أَولًا، فانهال الرصاصُ عليهم من خلف الشبابيك والجدران دون مقدماتٍ، كانت الفرقة متأهبةً على الرغمِ من أنها لم تتوقعْ تلك المقاومةَ العنيفة، واحتمَت بالأرضِ فاحتوتْهُم كصدرِ أمٍّ حنونٍ تخشى على أولادِها الذلة والمهانة، وتبادل الطرفان إطلاقَ النار بكثافة.

وقف خالد خلفَ كوةٍ تحترقُ إثْرَ إصابتِها للتو بقذيفةٍ طائشةٍ، وأخرج مدفعَه، وأطلق القذائفَ في كل جانبٍ، في محاولةٍ يائسة وبائسةٍ منه لدرء ما لا يقدرُ عليه، في تلك اللحظةِ مقت حياتَه، وكرهَ الدُّنيا، وحنقَ على كل الوجوهِ التي لم يعتَدْها تقاتل جواره، وتمنى أن يحولَ دفةَ سلاحه الممتعض نحوَهم، ويرديهِم جميعًا قَتلى، ثم يقتلُ نفسه معلنًا نهايةَ تيهٍ، وصراعٍ لا تعرفُهُ عقيدتُه.

اشتدَّ لهيبُ الشمسِ، وتأججَ القتالُ، وانتشرت رائحةُ الموت النتنةُ، كان عددُ المتواجدين في المكانِ أكبرَ مما توقعوا، وأبرزوا شرًّا أكبر من قدرةِ مساحةِ هذه المزرعة على الاستيعاب، كأنها كانت تخبئُهم تحتَ أرضها، لكنَّ الفرقةَ استطاعَت تشتيتَ نصف المطلوبين بين صرعى وفارّين إلى موتٍ يتربصُ بهم.

وبعد لحظاتٍ؛ وجد خالد نفسَه يقفُ وحدَه يواجهُ طالبي الثأر بعد هروبِ الجناة، فحمل سلاحَه، وقفزَ من نافذةٍ خلفيةٍ تتجه نحو الجنوبِ، رأى جثثَ بعض رفاقه مطروحةً فوق الرمالِ، والقلةُ الباقية منهم تلاحقُها أفرادُ الفرقةِ.

خفَّ احمرارُ فوهاتِ البنادق ليلتمعَ بياضُ الشمس، اعتلى حاتم سقفَ بيتٍ بعدما رأى فوقَه ظلًّا يختفي، ووجد بئر ماء جوفيٍّ منزويًا في ركنٍ خلف البيت، انثَنَى غطاؤُه المعدنيُّ الصدئُ لأسفل، فعلم أن شخصًا اختبَأَ داخله، فقفز حاتم وراءَه لا يهابُ ما ينتظرُه في جوفه المظلم، فناطحَتْه يد الهاربِ وسط ماءِ البئر الآسن، وحاول دفعَه لأسفل وإغراقَه، فثبته حاتم مكانهُ بحركاتٍ مباغتةٍ، وشجَّ رأسه المشعثَ بالحائط الصخريّ، ففقد الهاربُ وعيه، مد إليه أحدُ الضباط حبلًا، فربط الهاربَ بطوق الحبلِ ورفع على الفور، ثم صعد حاتم من البئر دون مساعدةٍ، كأن البئرَ جذعُ نخلةٍ مائل.

لم تتوقع الفرقةُ مجابهَةَ هذا الكمَّ الهائل من الزخمِ والأسلحة الغاضبة، لكن مهمتَهم كُللت بالنجاح، وحَقَّقت أكثر مما كُلفت به.

في هذه اللحظاتِ تقدَّمت سياراتُ الجيب داخلَ المزرعة، مع وصول طائرتَي أباتشى للدعمِ الجويّ، وتحولت باحةُ البيوت إلى عصبةٍ من القتلى، والْأسرى المتخاذلين أمام مصائرِهم، علها تتغاضى عنهم، وتتركهم فرادى ليختاروا قدرًا آخر أفضل، يتناسبُ مع إيمانِهم المُزعزع، لكن لا أحد يفرُّ من مصيرِه، ولا تتخلى المصائرُ عن أصحابها، ربما لأنها تعلمُ أنهم لن يحصلوا على بديلٍ أفضل، فتعانقُهم بعقابِها المَحتوم.

قُبِض على الْجميع إلا شخصين، أحدُهما أصابه الوهنُ، فاحتمى بصخرةٍ ينتظرُ من ينجيه، يطلقُ من خلفها النارَ بعشوائيةٍ مثل ضرير، فتُرِك لحين فراغِ ذخيرتِه، وحارتْ نفسُه بين الجبن أو الاستسلام لغياباتِ ما يفر منه، وخالد الذي قاد السيارةَ التي سرقَها من قبل من أطرافِ السوق، وداس مقبضَ الوقود كي تحملَه بعيدًا عن جنتِه.

استقل حاتم سيارةً، وانطلق في إثر خالد الهاربِ، وتبعتْهُ سيارةٌ إضافية، تسبقهُما إحدى الطائرتين.

اعتلى خالد مرتفعًا رمليًّا شديد الانحدار من الجانب المقابل، وراوده حلمٌ قديمٌ بانتهاكِ حرمات الخطر، واعتلاء قمةِ فشله، فعلها! محولًا قنوطَه إلى غباءٍ يتراشقُ فوق الرمال، قفزَ من فوق التل، وكاد أن يقلبَ السيارة على مقدمتِها كي ينجو بنفسِه، لم يصب السيارة عطبٌ، تراجعت السيارتان اللتان تلاحقانه إلى الوراء، والتقَّتا من خلف المرتفع، اقتربت المروحيةُ من خالد محاولةً اعتراضَه،

لكنه راوغَ مطلقًا عليها النارَ من بندقيتِه الآليةِ، فابتعدت عنه، وفضَّلت استخدامَ اللينِ معه؛ لأنهم يريدونه حيًّا، صدح صوت مكبراتٍ يدعوه للسكونِ، وحِفظ حياتِه المعرضةِ للفناء، فلم يمتثل خالد لأحدٍ، وما كان له أن يستجيبَ الآن، فجاء الصوتُ مؤكدًا مرةً أُخرى من علٍ:

- "أوقف السيارةَ، واخرج واضعًا يدَيْك خلفَ رأسك".

عدَّ النداء إهانةً لشخصِه الجامحِ، وزاد من سرعة السيارة مشعلًا المطاردة، فكُرر نداء مختلفٌ:

- "سلم نفسكَ، وإلا أطلقْنا عليكَ النار".

ظن أنه أمرٌ جديدٌ يحرّضُه على الرذيلةِ فازْدَراه، ولم يعبأ بهم مع اقترابِ حاتم منه دون هوادةٍ، ولا تراجعٍ عن القبضِ عليه.

التقَّت الطائرةُ في الهواء بحركةٍ بهلوانيةٍ متراجعة للخلف، ثم اقتربَت مِن مؤخرةِ سيارةِ خالد من الجانب الأيمن، وأطلقَت النار على نصفِ السيارة الخلفِيّ، فمزَّقت الطلقاتُ هيكلَها المعدنيَّ كخرقةٍ باليةٍ، وحولتْه إلى كومةٍ من حديدٍ ناتئٍ مليءٍ بالثقوبِ وهباب البارود، فتركَها خالد تحترقُ، ولاذ هاربًا لينجوَ بنفسه.

سار مثقلًا بما يحملُه فوق كتفَيه، وأرهقَ كاهله منذ سنين خلت، جارًّا أذيالَ ماضيهِ خلفه، وجرَّتَه الممتلئَةَ بالتيهِ والضياعِ، وبعد جهدٍ وجد نفسَه قد عاد إلى نقطةِ انطلاقتِه الأولى، طاردًا بقيةَ أوهامِ شيوخِه وجُحودِهم من رأسه.

ارتخت قدماه المُثْخنةُ بالجراح، المثقلةُ بالدم والرصاص، وأَوشك أن يهوي أرضًا كصرحٍ متهالكٍ منذ عصورٍ غابرة، توقف حاتم عن اللهثِ وراءه، ولاحقه سيرًا بتأنٍّ، لا يريد صيدًا يؤجلُ خلاصه لبعد حين، يعلمُ أنه يتألمُ، وسيستسلمُ في النهاية، تخاذلت قدما خالد، وتقاعَست عن حملهِ، فسقطَ، وتمرغ وجهُه ببقعة دمٍ ما زال ساخنًا لأحد الضباطِ الذين قاتلوا ببسالةٍ لن يخلدها التاريخُ؛ لأنه لا يعلمُ عنها شيئًا، تلوَّى خالد، وانتفض كأنهُ حيةٌ تجرَّعت سمَّها، فأنكرت فعلتها وهي تكافحُ سكرات الموت، ثم استقر أَخيرًا على ظهره مستسلمًا أمام قدرهِ، مقيدًا بأغلالِ أفكاره، تتساقطُ حباتُ الرملِ من لحيته.

ابتسمَ خالد بسماجةٍ ساخرًا من قدرهِ؛ لإيداعه مصيرًا كهذا، لم يظن يومًا أن نهايتَه قريبةٌ إلى هذا الحد، وأنها ستكون على نسق ذلِّ المهزومين، طلَّ وجهُه الذي غطاهُ الغبارُ المعجونُ بالعرقِ والدمِ، وشفتاه المتيبسة من خلف ستار شجاعتِه الموهوم بها، يعلقُ على مقدمةِ صدرهِ همَّ الأمةِ، والذَّود عنها من خطرِ عدوٍّ لا أحدَ يراهُ غيره، كأن اللهَ كلفَه بحملِ هذه الأمةِ إلى برِّ الأمان.

اصطف بعضُ أَفرادِ الفرقة حوله مشكِّلين دائرةً واسعةً، صانعين بأجسامِهم محبسًا له وسط الرمال التي كان مختبئًا ببطنِها، لا أحد يستطيعُ التقاطَ نظراتهِ، ومعرفة ما تخبئُ وراءَها، وحده حاتم أحسَّ من ملامحه الحزينةِ المطفَأة الهائمة في الفراغِ أن لديه رغبةً مُلحةً في البكاءِ المُرِّ، فعلاه، وتفحصَه بعيونٍ قاسيةٍ حادةٍ تخترقُه؛

كي يتأكد من صلاحيتِه للموت، ابتسم خالد بسخريةٍ لم تزعج حاتم، ولم تبدُ عليه بادرةُ سوءٍ نحوه، فقال حاتم بوجهٍ متجهمٍ، ملامحُه جامدةٌ ثابتةٌ:

- "أَلا تتذكرني؟"

فابتسمَ خالد بعفويةٍ ابتسامةً لم تكتمل، لإحساسِه بألمٍ يطعن ضلوعه، ونظر إلى السماء ليتبينَ إذا ما كانت غاضبةً عليه أم راضيةً، بدا عليها الاطمئنان، لكنها عابثةٌ، فودعها بيديه شاعرًا أنه لن يراها ثانيةً، تراءى له القمرُ بازغًا يعانق الشمسَ بكبد السماء قبل أن يباشرَ ليلته، حاول التقلبَ على جنبِه الأَيمن متحاملًا على ذراعِهِ، فعجز عن الحركَة، فتأهب حاتم، وسحبَ سلاحه، وصوبَه تجاهه بحزمٍ، إن إحداثَ أيّ حركةٍ أو التفاتةٍ أمام أُناسٍ منهكين متأهبينَ وغاضبينَ فكرةٌ سيئةٌ تعد انتحارًا.

جرده حاتم من سلاحهِ، وفتشه عله يعثرُ على ما هو أثمَن منه، أو دليلٍ يقوده إلى عناصر إجراميةٍ أخرى، فلم يجد شيئًا ذا أهميةٍ، بضع رصاصاتٍ عليها آثارُ دمٍ أُطلِقت من قبل، احتفظ بها خالد ليتغذى بها وقت الحاجة، وحاجيات أُخرى غَير ذي قيمَةٍ.

قبيل الموتِ بلحظاتٍ؛ لم يطقْ خالد انتظارَه، جمعَ كل قواه المتلاشية المتسرّبة حولهُ، لينطق بكلماتٍ خرجت همسًا ضعيفًا وسط ضوضاء الكون:

- "كيف تضمن لنفسك أن تبتَسمَ وأنت ميتٌ؟".

فأَجابه حاتم ببديهيةٍ:

- "أن يكون آخر ما تراه وجْه ملائكةِ الرحمة".

فنظر إليه خالد بعيونٍ وجلةٍ متفاجئةٍ، ثم أغمض عينَيه بألمٍ بعدما مُزقت أحشاؤُه. فقال حاتم:

- "إذن؛ لماذا جئتَ تقتلنا؟! جعلتَهم يمضغونك بين فكيهم كي يخفَّ عذابُك، فثقل عليكَ".

- "لا؛ نحن نقاتلُ كفارًا".

قاطعه حاتم:

- "كفار!"

فاستطرد خالد:

- "هذه الأمة ستفترق على ثلاثٍ وسبعين فرقة، ثنتان وسبعون في النار، وواحدةٌ في الجنة، وهي الجماعةُ".

- "إذا كنا كفارًا، ولم نقتلْ أحدًا بغير حقٍّ، أو نبغِ الفسادَ؛ فمِن أيِّ الفرقِ أَنت؟!".

- ...

أضاف حاتم:

- "المسلم من سلمَ المسلمونَ من لسانهِ ويدِه".

ازداد غضبُ حاتم وحنقُه على أمثالِه، الذين يظهرون فجأةً، ثم يختفون مثل أشباحٍ تخشى الضوء، كانت بقية أجزاء روح خالد المعذبة تخرجُ من رئتيهِ، منهيةً لقاءً ثقيلًا لزُملاء قدامى، تحمَّل خالد العبءَ الزائدَ على جسده الجريحِ دون تأوهٍ أو ضجر، وتحملَ بصبرٍ جميلٍ كلماتٍ تخرقُ أذنَه التي ما عادت تسمع شيئًا.

- "مصيركم الموتُ".

الكلماتُ السجينة داخل خالد لن تُنجيهِ من العقابِ، ولن تحميه التوبةُ الآن، لقد هزمَ في معركته التي حشد فيها جلَّ عدتِه، وفقدَ ملكَه، وتحطمت كرامتُه تحت أقدامِ جنود وطنه، وهشمَ مجده المنتظر وسط صحارٍ لا تنبتُ إلا الخيرَ، ولم يعد يُستجابُ له كما كانت كل طلباتِه تُلبى من قبل، أراد البكاءَ بين أحضانِ أمه، وأن تحتويه كي تحميَه من شرور العالم الذي عذبَه، فَلا يرحمُ من يقعُ بين براثن أنيابه.

طَفرَتْ دمعةٌ يتيمةٌ كانت محبوسةً منذ يوم هروبِه الأول، فتفاعلت ذاكرتُه، وعادت للعمل، تذكر فجرَه الأولَ وقت سقوطِ المئذنةِ، ونقيقَ الضفادع، وسهراتٍ منسيةً، وجرعةَ الخمر الأولى، ولقاءَ سمير، وصلاتَه بعد توبةٍ منقوصةٍ، وسفرَه إلى سوريا طمعًا بأنهار الجنة المليئةِ بالعسل، بعدما ضاقت عليه الدنيا بما رحُبت،

وتآمَرتْ عليه قريتُه وريفيَّتُه ونفوهُ، وقتالَه هناك، والغاراتِ المميتةَ التي عاشَها، ثم عودتَه إلى مصر لقتالِ أعداء جددٍ أسموهم الكُفار.

توالت عليه تباعًا صورٌ من حياتهِ أنْسَته محنتَه الحاليَّةَ، تذكَّر يدًا تمسكه بإحكامٍ وهو يتلوى كثعبانٍ يحاول لدغَ عصا تضايقُه، وطبيبًا يرمقُه بنظرةِ تحدٍّ، تذكرَ عندما كان طفلًا في الرابعة من عمره، يهرب عاريًا من أمهِ، مفلتًا من أغلالِ يدِها عندما حاولت إجبارَه على الاستحمامِ. تذكر فرحتَه بأول يومٍ دراسيٍّ وهو يقفُ في ساعات الصباحِ الأولى على بوابةِ المدرسة الابتدائيةِ، يحمل حقيبةً فارغةً فوق ظهره، والندى ما زال يتساقط، وعناقَ أمِّه وتبسمَها له عند عودتِه، وسؤالَها عن درسِه الأول، ومرورَ الأعوام، وانتسابَه للمرحلة الإعدادية. تذكر ميلادَ رجولته، ومراقبةَ الفتيات العابراتِ من النوافذِ المشرعة أيام الثانوية، وانهيارَ صداقاتٍ، وتكوينَ أخرى أَشد ضعفًا انهارت هي الأُخرى، والرغبَةَ باكتشافِ المجهول.

تذكرَ اتكاءَه على حائطِ مدرستِه الذي كاد يهوي به عند مرورِ هدير، ونظرتَها الخاطفةَ لِلُبِّه، المعبئةَ بالطهرِ، واللذةِ، والعفةِ، والرغبة، تذكر تعلقَه بها منذ تلك اللحظةِ التي قدسَها لسنواتٍ، ثم كفر بها جهرًا صابًّا لعناته عليها بعدما هجرَتْه بعد علاقةٍ طويلةٍ. وتذكر دخوله الجامعةَ، وعدم قدرته على التأقلمِ مع تحدياتها التي لم تناسبْ قدراته، وتركَه الدراسة بحثًا عن خلاصه الذي لم يدركْه، وسفرِه

إلى سوريا بعدما أقنعَه شيخُه بوجوب نصرةِ إخوانِه السوريين، ثم بعثه إلى مصر ليكملَ جهادَه فيها، متخليًا عن إخوانه السوريين بعدما هبَّ لنجدتِهم.

أحسَّ حاتم ببدء غيابِ خالد عن الوجود، فصفعَه في محاولةٍ لتأجل غيابِه المنتظر قليلًا كي يستجوبَه، ساءت حالتُه، وبقيَ بين فقدِه الوعي، وإدراكِ واقعِه المزيفِ، فصرخ حاتم به:

- "لا تمت الآن!".

لم تُجِب الا أصواتُ غربان غريبة حائمةٌ فوق نواصيهم فرحَةً، فكرر حاتم كلامَه، وهو يحاول إنعاشَه وفتْحَ عينَيْه، وأَنَّى يستجيب له! فيئِس منه، وقام مبتعدًا عَن رأسِه المتسخِ، وحملقَ في السماءِ بحنقٍ، كاد يركله لولا أن رآه يفتحُ عينيه ويحركُ يدَه، فقعد إلى جوارِه كتائهٍ ظمِئٍ وجد السرابَ ماء، وقال بلهفةٍ:

- "أيوجدُ غيركم؟".

- "ما لي لا أرى الملائكةَ مصطفِّين حولي لحملي إلى الجنَّةِ!".

- "أتطمعُ بالجنة؟!".

- "نعم!".

- "أخبرني كيف تختبِئون؟".

تنهد بصعوبةٍ بالغةٍ، وهمس:

- "علامَ أجيبُك! تريدُ أن أُرشدَك إلى مكانِ المجاهدين!".

- "عَن أَيّ مجاهدين تتكلمُ؟ إنهم مفسدون! أعداء السَّلام".

- ...

- "أتسميهم مجاهدين وهم يقتلونَ الأبرياء؟! إنهم مجاهدون لدى الشيطان".

- "اقتُلني".

- "إن سلاحَنا صُنع ليحمي الحياةَ، وليس للقتل".

- "لماذا أتيت هنا يا حاتم؟ سوف تموت".

- "لماذا جئتَ أنت هنا! كيف؟! أخبرني؟".

- "اتَّضح لي أنني كنتُ أَستجدي حياةً لا تجيءُ".

انحنى إليه حاتم، وقال بمرارةٍ:

- "لكنك بدلًا من ذلك سعيتَ وراء الموت".

غرق خالد في سكوتٍ، فغاب عن الحياةِ، بينما العربات العسكرية ذات الوجوهِ الجديدة تغزو المنطقةَ بأزيزِ محركاتها، وأضوائِها الكاشفةِ المرتجة، تعلنُ أسلحتُها الخفيضةُ عن اطمئنانٍ مؤقتٍ نزل بسلام.

***

بعد أيامٍ؛ انفجرَت عبوةٌ ناسفةٌ كانت مزروعةً بجانب الطريق في أثناء مرور دوريةِ حاتم، احترقت سيارةٌ، وافترشت النيران المكانَ، طرح الانفجار حاتم بعيدًا، وعلى الرغمِ من ذلك طالته أَلسنة النيران، وأكلت وجهَه، وكتفَه، وجزءًا من ظهره، وجاءت على جزءٍ كبير من وجنتِه، وجحظت عيناهُ دون جفونٍ، وظهر جزءٌ من أَسنانِه التي كانت تلمعُ منذ دقائق، فانتفضَ من الألم، حتى فقد الوعيَ على إثرِ صاروخٍ سقطَ قريبًا منهُ، وقتلَ ضابطًا وثلاثةً من الجنود.

عاد حاتم من سيناء هذه المرة في إِجازةٍ اضطراريةٍ، وأُودع مستشفى عسكريًّا في القاهرة، لم يشفقْ على نفسهِ، أو يحس بالغضبِ، لكن شقَّ عليه أن يراه أحدٌ بوجهٍ محترقٍ، وهو المتباهي بنفسه.

تجنبَ حاتم لقاء الدكتورة نوران قدرَ الإِمكان، فلم يُعْلِمها بالحادثِ، ولا بمجيئِه القاهرة، لكن نورانَ علمت بالأمرِ بينما كانت تتابع الأخبارَ عبرَ التلفاز، أَنكرت الخبرَ بادئ الأمرِ، ثم تقبلته بعدما تأكَّدت من اسمِه، واتصلت بحاتم لتتأكد من صحتِه، وتحت الضغط أَجابها كما يجيبُها دومًا في لحظاته العصيبةِ بالهزل، وطمْأَنها على صحتِه، وأخبرَها أنه لن يموتَ قبل الزواجِ منها، نوران هذه المرة لم تكُن في مزاجٍ يسمح لها أن تطربَ بسخريته، بكت وهي تعنفُه بودٍّ، وطالبتْهُ بإِعلامها باسم المستشفى، فراوغ كثيرًا كي يفلت من الإِجابة، فضيقت عليه الخناقَ، لكنه تمسكَ بقرارِه حتى النهاية، فَأَنهت نوران المكالمة غاضبةً، ثم علمت اسمَ المستشفى بطريقتِها.

لم تطق نوران الانتظارَ، وذهبت راكضةً، يسبقُها قلبها إليه ويستبقيه، في المستشفى؛ رفضوا السماحَ لها بالدخولِ ورؤية حاتم؛ بحجةِ انتهاء وقتِ الزيارة، وتحت ربقة إِصرارِها وَثباتِها أَمامهم؛ سمحوا لها بدقائق معدودَةٍ لتراهُ، ثم تغادر، لكن حاتم رفضَ استقبالَها، فاقتَحَمت نوران غرفتهُ بعد أن كادَت تتعاركُ مع الممرضات، فرأتْ وجهَه المحترقَ، ففقدَت الوعي.

حينَ استفاقت؛ بكت إلى جوارهِ بفؤادٍ محترقٍ، أخبرها حاتم أن هذا هو السبب لعدمِ السماح لها برؤيتِه، وزعم أن هناكَ إِمكانيةً لشفاء وجهِه، وأن الاطباء يحضِّرون لإجراء عمليةِ تجميلٍ لهُ، سوف تعيده إلى سابق عهده، ومع أن نوران شككَت في كلامهِ؛ إلا أَنها تعلقت بهذا الأملِ الأَخير؛ لعجزِها عن تقبلِ غيره، وهي ما زالت ذاهلةً مصدومةً، لا تصدقُ أن وجهَ حاتم قد احترقَ.

قال حاتم مازحًا:

- "ألستِ طبيبةً؟! أيُعقل أَلا تتحملي رؤيتي وأنا مصاب!".
- "بلى؛ أنا طبيبة! لكن لم أتخيلْ حدوثَ هذا لكَ! في الحقيقةِ.. ربما توقعتُ قتلَك".
- "مخيلتك واسعة! يا دكتورة".
- "أعلم، لكن لا تنكرُ أن الخطرَ يحدق بك".

- "اطمئني، لن أعودَ هناكَ! لأَني حتمًا سألحقُ بوظيفةٍ إداريةٍ".

- "حقًّا! هذا خبرٌ جيدٌ".

طالت فترة بقاء حاتم في المستشفى، وأُجريت له عمليتا تجميلٍ، تم زرعَ جلدًا بديلًا في وجهِه، حتى بدا شكلُهُ أقربَ ما يكونُ إلى طبيعتِه، لكن حاتم لم يعد يهتمُّ بشكلِه، ولم يشغله التفكيرُ في الأمر كثيرًا، رضيَ بمصيرِه، فقد كانَ يعرفُ مسبقًا طبيعةَ عمله الصعب الذي اختاره طوعًا، ووهب له حياتَه ليذودَ عن بلاده، ويعيدَ تألقَ مجدها، سائرًا على خطى من سبقوه.

لم تتركه نوران لِيغيبَ عنها يومًا، كانت تنهي عملها، ثم تذهبُ إلى زيارتِه، وتبقى معه إلى الليلِ حتى ما بعد انقضاءِ وقت الزيارة. أَضاء وجهُها مرةً ثانية بابتسامتِها وهي تشاهد تحسن حاتم، وإن كان يتطورُ ببطءٍ؛ إلا أنها رضيَت، فزادَ ذَلكَ من سماحةِ وجهها، واكتسبت بعدًا آخَر، بدت هادئةً، وأكثر رضى.

سمح الأطباءُ لحاتم بالخروجِ، وإكمالِ العلاجِ في البَيت، فسُرَّ الجميعُ، واستقبلوا حاتم باحتفالٍ كبيرٍ أُقيم في مسكنِه ابتهاجًا بخروجِه، حاتم سعيد، ابتسامتُه تختبرُ نصفَ وجهه الجديد، فتَتَبختَرُ به، لأول مرةٍ في حياته يشعر بهذا القدر من السعادةِ، سعادة تهيئُه للكمال، وتبلغُه قمةَ أَحلامه.

***

انتقل حاتم إلى المستوى (ب)، وأُسنِدت إليه مهام وظيفة إداريةٌ، بعدما كان مقاتلًا يقاتلُ في ساحةِ المعارك، فتقبلَ قدره بنفسٍ راضيَةٍ، وتطوع لإلقاءِ محاضراتٍ تثقيفيةٍ أمام الطلاب الملتحقين بدورةِ التربية العسكرية بجامعة القاهرة.

تحدثَ إلَيهم عن العملياتِ العسكريةِ الدائرةِ في سيناء، وعن خِسَّةِ العناصر الإجراميةِ المليئة قلوبهم بالحقدِ والكراهية، وكيفَ أنهُم يحاولون إفسادَ سيناء كأنها تبةٌ تسكنُها الشياطين، ويريدون إحراقَها ببضاعتهم حتى تصبح ركامًا، وحكى لهم عن بطولاتِ زملائِه، وقصصِ الاستشهاد، كما قصَّ عليهم تجاربَه.

أحبه الطلابُ لصدقِه وعفويتهِ، ولعدم محاولتِه التأثيرَ فيهِم، ولتجربته الفريدَةِ التي ستبقى لهم ذكرى يفتخرونَ بها.

اطمأنَّت نوران أخيرًا على حبيبِها، وهذا ما سوفَ تُؤَكدُه لها الأيامُ.

(٢)

الإمام الأكبر

وضع عبد الرحيم خنجره المدبّب بجواره، ثم دخل في الصلاة، ظل يصلِّي وسكون الليل يغريه بالمزيد، يريد تطهير نفسه قبل المسير لرحلته إلى الجنة، أتم ركعتين، تفقد خنجره، دخل في صلاة أخرى، وقرآن الفجر يدوّي عبر الأثير من الجامع الأزهر.

للفجر بدايات جديدة، هادئة تسكن الروح، لم يرفع دعواته إلى الله بالهداية، لم يطلب منه المغفرة، فقط ألحّ أن يوفقه في مهمته، أن يقبله عنده من الشهداء، لأنه ما خرج إلا لإعلاء كلمته، ونصرة الحق كما يعتقد.

ارتفع صوت المقرئ بقرآن الفجر فجأة أثناء صلاته، دوّى الصوت في أرجاء القاهرة المليئة بنجوم ساطعة، وقمر منير، كل شيء مُضاءٌ في هذه المدينة، إلا قلبه ظل أُفقه خافتًا بين النور والظلمة.

تدرب جيدًا لأداء مهمته، انتظر هذا الصباح منذ شهور عديدة، يراه فارقًا في تاريخ الأمة، التي ستتخلص فيه من أعتى كفارها "شيخ الأزهر"؟!

تطهّر، اغتسل غُسل الموتى، ارتدى ثوبة الأبيض، وفوقه عباءة حمراء، ثبّت خنجره على جنبه الأيمن تبركًا، لم تهمه الأوراق المبعثرة، ولا صفحات الجرائد، ولا جهاز الكمبيوتر التي تحتوى على صور ومعلومات عن الإمام الأكبر، جمعها على مدار الأيام الماضية، منذ اختبأ في هذه الغرفة المستأجرة، ورقة واحدة فقط طواها في جيبه، يحفظ المكتوب فيها عن ظهر قلب، لكنه فضّل اصطحابها معه، لتُذكِّره بنعيم الجنة الذي ينتظره، ودلائل كفر الإمام؛ لتقوِّي عزيمته، ويشحذ بها همّته.

خطتُه بسيطة: غرز الخنجر في صدر الإمام؛ ليهدر دمه ويريقه، حانت اللحظة المواتية عندما أعلن الإمام أنه سيحتفل بليلة النصف من شعبان بالأزهر، اختارته الأوامر ليبدأ رحلته إلى الجنة، بعد تدريب استمر ثلاثة أعوام وسط سراديب الضلال، جعلوه يتقبل القتل برضًا تحت ذريعة الشهادة في سبيل الله؛ عندما يُطلب منه ذلك دون اعتراض أو مشاورة.

لا يفصل بين الغرفة والجامع إلا عدة شوارع، اجتازها بخفة وحماس، حبُّ الشهادة يسيطر عليه، استقبله هواء الفجر بريبة، وسط أجوائه المنعشة، لم يمنعه عنه، ولم يبال هو بتطهير صدره منه، مضى قاصدًا باب المغاربة ليدخل منه كما أُمر.

فور دخوله اجتاحتْه موجات السكينة، فسرى في جسده شعور بالارتياح، استبشر به، اعتبره دليلًا على عدل مسعاه، وأنه يسير على الصراط المستقيم، رائحه عبَق الجامع يفوح عبيرها حوله، تحتويه، تستقبله بحفاوة بالغة. أول مرة يشاهده من الداخل، أبهره صحنه الواسع الذي يعكس زرقة السماء، وما تبقّى من نور القمر عليه. أروقته المتعددة، وأعمدته الكثيرة، تجوَّل فيه متأثرًا بأجوائه الطاهرة التي خَدِلتْ أطرافَه وعقلَه، تركته يعيش وسطها منسجمًا. السجاد الأخضر الممتد أمامه في أرجاء المسجد؛ ينسيه لون الدم الذي انسال من عروق ضحاياه، ألقى بصره على المنبر، تذكّر مهمتَه التي نسيها للحظة، فأخرج الورقة من جيبه: قرأها عدة مرات؛ ليذكِّر نفسه بأجر الشهادة؛ ليشحن قلبه بمشاعر الكره، تمنى لو يمضى الوقت، ويجيء هدفُه؛ فيطعنه في قلبه، ثم يترك نفسَه تلقى المصير المقدَّر، ويؤمن أنه الجنة.

أراد أن يطهّر قلبه من ذنب النسيان، دخل روضة الوضوء، تساقطت من الصنبور قطرات ماء النيل العذب، وضع يده تحته، فطهرها الماء من الدم الخفيّ الذي يلوّثها، لا يعلم لما استحق أصحابها القتل؟! فهو لا يخرج من سرداب الضلال إلا بعد تلقي أوامر بالقتل بحجج كثيرة، لا يكلّف عقله فهمها.

غسل وجهه، ثم ذراعيه، أحس بالطهر لكنه أكمل، مسح رأسه، ثم غسل قدميه، شعر بعد انتهائه من الوضوء أنه ولد من جديد، كأنه كائن آخر لم يرتكب ذنبًا في حياته.

تجاوز صفوف المصلين إلى الصف الأول، جلس بالمنتصف، مقابل المنبر، ينتظر انتهاء المبتهل من أداء ابتهالاته، ورفع الأذان. صوته قويّ تجاوز أفق الجامع إلى المحيط البعيد، ارتفع صوته فجأة، وهو مغمض العينين. اقشعرت الأبدان، ذرفت دموع ضيوف الرحمن، لمعت عيونهم، سادت نفحات رحمةٍ، واطمئنانٍ، وبهجةٍ، ارتجفت القلوب في خشوع، وهي تنصت في سكينة:

يا منْ هوَ المعروفُ بالمعروفِ يا غوثاهُ يا مولاهُ يا مولاهُ

لي صاحبٌ يشكو الديونَ فقضّها عنهُ وبلِّغْهُ الذي يهواهُ

واقبلْ توسُّلَنا بفضلِ محمدٍ وبمنْ لهُ وجهٌ لديكَ وجاهُ

واشددْ عرى عبدَ الرحيمِ برحمةٍ إنَّ الحوادثَ قدْ فصمنَ عُراهُ

وأَنِلْهُ في دنياهُ كلَّ كرامةٍ وقِهِ الذي يخشاهُ في أخراهُ

وأذقهُ بردَ رضاكَ عنهُ فلمْ يَخِبْ منْ كانَ عينُكَ بالرضا ترعاهُ

واقمعْ بحولِكَ حاسدِيهِ وكنْ لهُ حرمًا مِن المكروهِ واحْمِ حماهُ

واغفرْ ذنوبَ أصولِهِ وفروعِهِ وصِحابِهِ وجميعِ مَنْ آخاهُ

وحدَه عبد الرحيم من يكابر، يغالب إحساسَه بالاطمئنان، يمنع النور من الامتداد إلى قلبه وغمرِه، يقاوم بقوة إحساسه بالاستسلام لتلك المشاعر، بدأ يشك في قوة إيمانه، ظن أن أجواء الكفر المغروس وسطها الآن – كما لقّنوه – هي السبب،

أخرج الورقة مرة ثانية من جيبه، أخذ يكررها ويكررها، ثم يكررها، لكن هيهات أن تمنع النور أن يجلِّي ظلمته، ووحشة قلبه، اندمج مع الجموع في الاستمتاع بالابتهالات، ارتعشت يده، سقطت الورقة منها، حملتها نسمات الفجر الخاشعة خارج الجامع، طرحت بها بعيدًا، نَعَم بالأجواء لأول مرة، غمرته العواطف المُفعَمة بالراحة والسكينة، نظر للأعلى؛ ليرى إذا كانت تتنزل نفحات رحمة.

أذن الفجر، أقيمت الصلاة، تلا الإمام في الركعة الأولى قولة تعالي: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} سرى فيه شعور غريب هزّ جسده، قد سمعها لآلاف المرات، لكن أول مرة يتأمل معانيها بتعمّق، فهم مراد الآية، أصابه إحساس أنه المقصود بمن قست قلوبهم، والفاسقين، لكنه دفع هذا الخاطر بعيدًا، حدَّث نفسه كيف يكون فاسقًا وهو خرج مجاهدًا في سبيل الله؟!

بعد انتهاء الصلاة متيقنًا من بطلانها؛ لاعتباره مَن أَمَّهم كافرًا، لكنه صلَّى معهم حتى لا يلفت أنظارهم، أعاد أداءها مرة أخرى وحدَه، وسط عيون بعض المصلين التي تتأمله بودّ جميل، ثم جلس يقرأ القرآن حتى يحين موعد صلاة الجمعة.

عند الضحى توافدت جموع المصلين، وطلبة العلم من كل مكان، حجزوا بأجسادهم أماكن يجلسون فيه لسماع الإمام الأكبر، فهو نادرًا ما يلقي خطبة الجمعة في الأزهر، فاعتبروا اليوم مناسبة خاصة ملأت قلوبهم بالفرحة مع

النصف من شعبان، زاد ضيوف الرحمن أضعافًا مضاعفة، سرعان ما امتلأ الجامع عن آخره، لم يبق فيه مكان لطائر صغير، فجلس الناس خارجه حتى امتلأت الشوارع المجاورة بسجاجيدهم، علت الأصوات بالترتيل، ودندنة التسابيح، والاستغفار، خشعت القلوب وسط الأجواء المفعمة بالإيمان والبهجة، ضوء الشمس المتسرّب للداخل يزيد من نوره، سبّحت أسراب الحمام فوق سمائه بأمان، في دورات متتابعة، وسبّحت.

الكل متلهّف لسماع الإمام، والنهل من علمه المستنير، ومنهج الوسطية، والاستمتاع بحديثة الذي تطمئن به قلوبهم، ويريح نفوسهم المعذبة، وأجسامهم المتعبة، احتارت العقول حول موضوع الخطبة: هل تكون عن الظلم؟ الرحمة؟ العدل؟ إعمار الأرض؟ طاعة الله على مراده؟ كما أشيع في وسائل الإعلام.

جذبتْ عبد الرحيم مشاعر الإخاء والمحبة التي تجمع ضيوف الرحمن، أثْرته الطاقة الروحية التي يحتويها الجامع، ويُغمر بها عباد الله، فهم أن مشاعر المحبة تجاه أمرائه كانت مزيفة، فَطِن لمَا وراء نظرات عيونهم المعسولة التي خبّأت الخديعة، والفساد في الأرض، كان يعيش في وهمٍ صوَّرَ له الضلالَ حقًّا بشتى البراهين الزائفة.

تلاشت كل تلك الذكريات الآن، دندن كما تدندن الجموع، ردّد التسابيح والابتهالات، اختفت أصوات القَتَلةِ التي تهمس في أذنه، أنصت لصوت ترتيل القرآن، لاحظ أن طفلًا صغيرًا بجواره يجيد القراءة أفضل منه، لم يتحسس خنجره

منذ عدة ساعات، نسي مهمته، اندمج مع الجمع المحتشد، ذاب بينهم، أصبح واحدًا منهم، فثَمّ تمازجٌ واكتمالٌ للّحن الذي يصدرونه من أفواههم جميعًا.

أحس أن قلبه ملوّث بالذنوب، خاف أن يكتشف الناس حقيقته، وأنه جاء لقتل شيخهم الذين تسابقوا للجلوس تحت قدمه، أراد القيام واستنشاق الهواء في الخارج، لكن الوقت قد فات؛ فالإمام يقف عند الباب، يستقبله المصلون بحفاوة وهم يفسحون له الطريق، تجاوزهم محيِّيًا إياهم بابتسامته العريضة، ووجهه البشوش السمح، تمنّى عبد الرحيم لو تنشق الأرض وتبتلعه! لكنها أبت، أصبح على بعد خطوات قليلة منه، الزحام حوله شديد، لم يستطع رؤيته، شعر بالخوف، تسمّر مكانه وهو يسأل نفسه: هل أتقدم وأطعنه في قلبه وتنتهى المهمة؟ أم أنتظر انتهاء الصلاة؟

صلى الإمام ست ركعات، ثم قام وصعد المنبر، استدار وألقى على الجموع السلام، فردوا السلام جميعًا بصوت واحد، وأعناقهم مشرئبةٌ له.

رفع المؤذن أذان الجمعة، فصمتت الأصوات، أخذت الألسنة تردد وراءه بصوت منخفض، زاد من قدسية الأجواء، وانسجام المصلين، وخشوعهم:

- الله أكبر، الله أكبر.

وقف الإمام منشرح الصدر، بمهابته الجليلة، وكبر سنه، ولحيته البيضاء المهذبة، وسنوات عمره الطويلة التي قضاها في تعلم العلم وتعليمه، والدعوة إلى

الله، نظر للجموع في أرجاء الجامع الفسيح، حمد الله وأثنى عليه، ثم صلى على النبي المختار، بدأ خطبته مباشرة بالآية الكريمة:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }، ثم تلا قول الله تعالي: { تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا للذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }، ثم استرسل في الخطبة، أحس عبد الرحيم أن الآيات نزلت خصيصًا له، فالكلمات والجمل والأفكار كل شيء فيها يدعوه لمراجعة نفسه، إيمانه، صراطه الذي يسير عليه، اغرورقت عيناه بالدموع، لم يتوقف الإمام استمر يضع يده على جروحه الغائرة التي أحياها؛ ليداويها، "يا عبد الرحيمِ أطع الله على مراده، لا على مرادك أنت، راجع نفسك قبل أن تلقاه!" من أين يعرف الجميع اسمه؟! هل علم الإمام بما في نفسه؟! ارتفع صوته، اهتزت الجدران والأفئدة الخاشعة، يدعوه لإسدال الستار على ماضيه المظلم، وأن يضيء سراجه؛ لينير طريقه المظلم الموحش؛ للفرار منه.

حديثه مشوّق جذّاب يلامس نبض قلبه، وصوته عذب يأسر الآذان، علمٌ غزيرٌ يتدفّق من كلماته بسهولة ويسر، تظهر الحكمة من ورائه دون عناء، فاشرأبت الأعناق، وانتبهت العقول أكثر، تهافتوا لخطف علمه من بين كلماته، وتدبر معانيها العظيمة.

استسلم لقوة غريبة اجتاحتْه دون يأس حتى ملكتْه، أحس بعريّه المخزي، تجنب أن يقع بصر الإمام على عينه من شدة خجله من نفسه. لكنه نظر إليه مباشرة، فأخفض رأسه.

شعر الإمام نحوه بشعور غريب، كأنه يعرفه منذ زمن بعيد، أحس بالألفة تجاهه والحب؛ عندما رأى دموعه تنهمر على خده، ولحيته القصيرة، علم بفراسته الماهرة العجيبة أنه يغالب نفسه في أمر جَلل، فأحب أن يطمئنه، وأن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، لم يلاحظ أحد تبدل موضوع الخطبة، فكلماته تداعب نفوسهم الرقيقة، وتعم السكينة أراوحهم، ففاضت أرواحهم ببكاء حار.

يريد قتله! حيَّرتْه أفكاره المبعثرة، مفاهيمه القديمة، لم يسمع هذا الحديث قط من شيخه! فلم يُحفِّظوه إلا الأحاديث النبوية والآيات القرآنية التي تحث على الجهاد، لقنوها له دون التقيد بالأهداف التي نزلت من أجلها، والشروط التي وضعها الشرع؛ تحقيقًا لمرادهم، وخدمةً لأهدافهم، خدعوا بها الشباب المتحمس لخدمة دينه.

شعر أنه غافل، تعرَّى جهله، اندفاعه الذي قادة إلى سبل الشيطان، والعيش وسط ظلام الضلال الذي لا يخرج منه إلا شر.

جلس الإمام الأكبر جلسة الاستراحة، عم الهدوء الصمت، ما زال قلب عبد الرحيم ينزف بمرارة، يراجع معتقداته التي اكتشف فجأة أنها غريبة عنه، نظر

للإمام وهو جالس مطمئن، النور يشع من وجهه، وسأل نفسه: أي فتوى أفتاها جعلت الأمير يغضب عليه؟ وأيها جعلته يصدر الأمر بقتله أمام الناس؟ أي ذنب اقترفه؛ ليستحق ذلك العناء والمصير؟!

وقف شيخ الأزهر مرفوع الرأس، لمحه بطرف عينه، لاحظ انكساره بين يدي الله، وثقل ذنوبه التي ناءَ بها، وملأت قلبه، والدموع المنهمرة؛ لتطهيرها، انتقى كلمات نزلت عليه بردًا وسكينة، ضغطت على جرحه الملتهب؛ لتداويه، دعته إلى الهداية والتوبة والسعادة، كانت قلوب المصلين كلها مشتاقة لسماعها.

أعدّ خطبته عن عبادة الله وفق مراده، لكنه وجد نفسه مضطرًّا لتغييرها، فتحدث عن الرحمة عندما نظر للوجوه الجالسة أمامه ووجدها تفتقدها، عندما فطن للذنوب التي أثقلت كاهلهم، تحدث عن المغفرة.

صوته وحده من يرن في أروقة الجامع وأعمدته، وهم ينصتون بعيون دامعة، وقلوب وجلة، وأبدان مقشعرّة.

ختم الخطبة بحديثه عن الظلم، وأنهاها بالحديث الشريف: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا – وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ – بِحَسْبِ امْرِئٍ مِن الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ".

رفع أصبعه إلى السماء، ودعا الله: "يا أرحم الراحمين اللهم إليك مددنا أيدينا، وفيما عندك عظَّمنا رغبتنا، فاقبل توبتنا، وارحم ضعف قوتنا، واغفر خطيئتنا، واقبل معذرتنا، واجعل لنا من كل خير نصيبًا، وإلى كل خير سبيلًا، برحمتك يا أرحم الراحمين. اللهم لا هادي لمن أضللت، ولا معطيَ لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا باسط لما قبضت، ولا مقدّم لما أخرت، ولا مؤخر لما قدمت. اللهم أنت الحليم فلا تعجل، وأنت الجواد فلا تبخل، وأنت العزيز فلا تذل، وأنت المنيع فلا تُرام، وأنت المجير فلا تُضام، وأنت على كل شيء قدير. اللهم لا تحرمنا سعة رحمتك، وسبوغ نعمتك، وشمول عافيتك، وجزيل عطائك. اللهم استر عوراتنا، وأقِلْ عثراتنا، واحفظننا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا، ومن فوقنا ومن تحتنا، ولا تجعلنا من الغافلين. اللهم إنا نسألك الصبر عند القضاء، ومنازل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء، ومرافقة الأنبياء، يا رب العالمين .. إلى آخر دعائه" آمين.

نزل من على المنبر، تقدم ليؤم المصلين، أقيمت الصلاة، اصطف الكل كالبنيان الواحد، تلامست الأقدام، والْتَوَتِ الأعناق للرحمن. إن لصوته لطلاوة تُجبر القلوب على الإنصات له بتمعّن، توقظ أشواق الإيمان في النفوس، دموع المصلين ما زالت على الخدود تسيل.

بكي عبد الرحيم أثناء الصلاة بحرقة، اعترف بذنبه، دعا الله أن يغفر له، تفتّح قلبه أخيرا؛ ليتشبع من نور الإيمان، والحق المبين.

سلم الإمام، فتدافعت الجموع عليه تحيّيه، أحاطتْ به من كل اتجاه، قبَّل أحدهم يده فجذبها بعيدًا عنه، عبد الرحيم أكثرهم حظًّا، كان أول الواصلين إليه، لامس يد الشيخ، قائلا:

- لقد أخرجْتني من سرداب الضلال!

أجابه وابتسامة وديعة على وجهه:

- {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}.

لم تمهل الجموع عبد الرحيم مزيدًا من الوقت، أبعدتْه عنه بتدافعها، وعينه عليه لا تفارقه، تذكر الخنجر على جنبه، تحسّسه فلم يجده، نظر إلى الإمام وكان يحدِّق فيه، دفع الجموع بعنف حتى اقترب منه، وهتف:

- يريدون قتلك يا شيخ!

- أسلمت أمري إلى الله!

قال في إصرار ملحّ، ووجهٍ جامدٍ خائفٍ:

- إنهم جادون.

- وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ؛ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ.

ثم استدار خارجًا، مسلِّمًا على الجموع، وهو ما زال محافظًا على ابتسامته الودودة، وسَمْته، وهدوئه.

(٣)

البر الغربي

اليوم هو الأحد، الحادي عشر من ديسمبر عام ٢٠١٦، الجو مشبع ببخار الماء، والضباب يحجب الرؤية، البرودة شديدة، جلعت الجميع يدثر بالأغطية السميكة، قليلون هم من خرجوا، الموظفون البادئة، والمنتهية وردية عملهم، مع ابيضاض الليل وطلوع النهار، والجنود الساهرة لحماية الوطن.

محطة قطار بورسعيد العتيقة معرضة دائما للسماء، يرتكز بناؤها الضخم بقوة فوق قاعدتها الصُلبةِ، لم تؤثر فيها قذائف الأعداء يومًا! يقبع فيها، وتحت الندى والغيوم الراكدة قطار ٥٩٠ جميع المحطات للقاهرة، دلف سائقه عزت عليوة للتو من باب المحطة؛ بجبين قاطب، وعين يملؤها النعاس والرمص، وجينز أزرق كلاسيكي رث، وقميص مزركش بخطوط عريضة متسخ، يرتدي فوقه معطفًا كُحليًّا، تعلوه الأيقونة "س ح م" سأله أحدهم:

- أول مرة تأتي قبل موعدك منذ عشرة أعوام؟!

- تشاجرتُ مع المرأة!

استقل كيرلس القطار، بوجه سمح غير راض، اختار مقعدًا بجوار نافذة مغلقة، أزال الأتربة المتراكمة عليها براحة يده، مسح إطار النافذة بمنديل ورقي، جلس باشمئزاز، ثم أخرج هاتفه من حقيبة صغيرة، معلقة على كتفه، وأخذ يلهو به باطمئنان يشوبه القلق.

تسبح في دعة سمكة ملونة، تحت الرصيف الخرساني لمعدية القنطرة شرق "البر الشرقي" استقبلت فضلات الطعام التي قذفها لها جندي حرس الحدود بمرح، أكلت منها بنهم، لا طيور بيضاء تحلق فوق المياه كدأبها، ربما تختبئ –أيضًا– يستقل الرصيف فتيان وشابان: عادل، وزكريا ينتظران المعدية لتنقلهم للبر الغربي "القنطرة غرب" يقف الفتيان عادل وزكريا؛ واضعين أيديهما في جيوبهما، مدثرين بملابسهم الثقيلة الكثيفة، ترتعش أجسادهما، وزكريا جالس بملامحه الحادة غير عابئ ببرودة الشتاء. نظر إليه عادل بعين فاحصة، اضطرب، فالتفت بوجهه الذي ترتسم على جغرافيته خطوط الألم بطولها، وعرضها...تجاه كبرى السلام المعلق، تأمله طويلًا!! لماذا شيده اليابانيون مجانًا؟! وقف، اقترب من حافة الرصيف، شاهد السمكة تسبح في المياه الساكنة شبه المتجمدة، رفع رأسه فجأة، صوب نظره للشاطئ الآخر، شاهد المعدية بمنتصف القناة، راقبها وهي

تبتعد...لو استطاع التبكير دقيقة واحد لَلَحِقَ بها!! ضرب الأرض بقدمه، ثم دعا الله " يا رب أريد رؤيته".

تسامر الفتيان –معًا– بنبرات منخفضة تأثرًا بالصقيع، ثم سأل أصغرهم:

– كم الساعة؟

أجاب وهو يفرك يديه ببعضها:

– السادسة إلا عشر دقائق. "٠٥:٥٣ صباحًا"

– سوف نتأخر.

– الحمد لله أن السفن الحربية لا تعبر اليوم!

وحده عادل يقف في صمت وهدوء، إلا من اصطكاك أسنانه ببعضها، تحدث صريرًا يحاول جاهدًا كتمه...لا يستطيع أن يمسك كتابًا بين يديه بحرص، حرك قدمه بضع خطوات بعدما أنهكه السكون، في حين سكن الفتيان، وزكريا بوج يتضرج بالضيق والحنق.

رست المعدية على البر الشرقي أخيرًا، فانزلق الجميع فيها كأن الرصيف يغرق.

أدرك ٥٩٠ محطة القنطرة غرب قبل موعد وصوله بدقائق الساعة الآن "السادسة ودقيقتان صباحًا" وإن بدا للجميع أنه موعده المحدد، قذفت آلة تنبيهه الرعب في قلوبهم، كزئير وحوش هائجة في البرية، أثارت تساؤلاتهم حول صحة وصوله؟

وإمكانية اللحاق به؟ قطع حبل تساؤلهم دوي نذير التحرك للمعدية، حث زكريا السائق على سرعة العبور، لم يجبه، أشاح بوجهه عنه، أطلق النذير للمرة الأخيرة ثم انطلق للعبور.

تأملوا صوت المحركات وهي تجبر مراوحها على الدوران، فاندفعت المياه الباردة خلفها كموج يشق سحب الضباب، تسيرها الدفة حيث شاءت، شقته ببطء...الشبورة الكثيفة تحجب مخاوف ركابها، ومركب عملاق قادم خلف الأفق من الطريق الشمالي، محمل بمعونات غذائية، وكساء وأدوية، خلفه مركب آخر أكثر سعة منه محمل بالذخائر، وطلقات البنادق.

لم ينتظر ٥٩٠ العابرين، فقد تحرك قبل موعد انطلاقه دون إشارة، وفي صمت إلا ضجيج محركاته الخربة المكهنة، في تمام السادسة وسبع دقائق، وإن بدا للجميع أنه الموعد المقرر.

قبل أن تحتك جوانب المعدية المعدنية برصيف البر الغربي الخرساني، قفزوا منها جميعًا كقذيفة تندفع من فوة مدفع غاضب، تشق بألسنتها السحب، ركضوا بخفة متجاورين، صعدوا السلم مهرولين، اجتازوا الحاجز الأمني بمهارة خبير، قطعوا المسافة القصيرة بين مدخل المعدية والمحطة ركضًا، وما إن استقروا على رصيف القطار، حتى شاهدوه وهو يتأرجح على القضبان المعوجة، يكاد يبتلعه ضباب الماء.

لم يمكث زكريا طويلًا ليفكر، انطلق قاصدًا موقف سيارات الأجرة، في حين وقف عادل يتدارك أمره، وتراجع الفتيان للوراء، قائلًا أحدهما متحسرًا:

- ذهب القطار!

تساءل الآخر بحيرة:

- ليس معنا نقود كافية، أنرجع؟

هز الآخر رأسه، وقال متأسفًا:

- ننتظر قطار الثامنة؟

- فسد اليوم.

- هيا نعود إلى بيوتنا.

اتخذ عادل قراره، انطلق مسرعًا، يتبع خطى زكريا، استقل الاثنان السيارة نفسها المتجهة إلى القاهرة.

اهتز ٥٩٠ بكيرلس بينما يسير على مهل، فوسعه تأمل حقول الترمس المزروعة على الجانبين، وسط أشجار المانجو، تلتف أوراقها اليانعة حول السيقان كأطفال تتشبث بأمهاتهم...مازال لونها براقًا على الرغم من الغبار الذي يثير غضبَه عبور القطارات المتكرر، بعدما تجاوزها سار فوق ترعة الإسماعيلية، بجوار معدية السيارات، أسفل كوبري السلام، قواعده ترتكز على شكل أعمدة ثنائية،

سمع عبارة على أحدها مكتوبة بطريقة عمودية وخط طفولي "عيش حرية عدالة اجتماعية" أسفلها فراشة جميلة، مرسومة باللون الأحمر، واقعية، شبه حية، تكاد ترفرف، لكنها تبعث على الكآبة، على الرغم من أنها فراشة!! على عمود آخر شاهد، عبارة تفصح عن نفسها، بخط رقعة منمق "نعم للاستقرار".

يجول في خاطر الثلاثة "زكريا، عادل، كيرلس" أفكار تشاؤمية حول مواعيدهم المرتقبة، وشى الشروق لهما بالتشاؤم، فأصبح باقي النهار لا يرجى منه خير.

فتح عادل كتابه وأخذ يقرأه بتدبر، وانعزل بفكره عن البقية.

علامات القلق، والاضطراب تظهر واضحة جلية على وجه زكريا الشاحب، الحائرِ فكرُهُ، كررها مرة عاشرة "يا رب أريد رؤيته".

في اللحظة التي فرغ من ترديدها، علق ٥٩٠ وسط ضباب البخار المتكثف، قرب منطقة البلاح، تذمر كيرلس، ففر البخار من حوله خائفًا، نقم من حظه الذي وصفه بالتعس، وبصوت مسموع:

- اكتملت! لن أدرك القداس.

نظر تجاه الثكنة العسكرية الرابضة على ضفاف القناة؛ التي تظلها سحابة بيضاء، ثم ردد "يا رب أصل الكاتدرائية قبل الموعد" في الوقت نفسه نطق عادل مستكينًا:

- لا أريد تفويت درجتين.

بعد حوالي ساعة، تحركت مؤخرة ٥٩٠ الثقيلة، كان الغيم الكثيف قد زال، والشمس أصبحت صافية دافئة، فبانت له القضبان لامعة، وطرقه سالكة، لم يبذل طاقة أكبر لتعويض الوقت الذي ضاع؛ غباء وهباء، سار بسرعته المعتادة تجاه الجنوب، شاقًّا طريقه صوب الألف مئذنة.

هدأت مياه القناة الرائقة، وفرعها الجديد، توتر كيرلس قليلًا، بعدما زاده الفوات الأكيد لموعده، وبدا متعمدًا من تقصير الهيئة صاحبة الأيقونة.

لمح في سمائها طائرًا أبيض يمرح مع وليفته، يعكس بجناحيه أشعة الشمس، ولون السماء المرتد من على صفحة المياه.

نظر لهاتفه المستقر بين يده الرقيقة، غاص فيه دون تركيز.

وصلت السيارة إلى وجهتها؛ (المرج)، نزل الجميع منها بعجل، تحرك زكريا قاصدًا سوهاج وهو يردد "يا رب أراه قبل موته" وعادل بخطى أقل خفة وثبات لجامعته، بينما ما يزال كيرلس عالقًا وسط ضوضاء القطار المتأرجح الصدئ.

(٤)

سويداء القلب

بُنيت البيوت المتناثرة حول الجبل من طوب اللّبِن، ثم اكتست ثوبها الأبيض، بدت من خلف الأفق كدَيْرٍ مهجورٍ للرهبان، بُني في العصر الروماني زمن الاضطهاد، فظلت قسوة الصخور على لين السهل الخصيب، فأكسبت قلوب ساكنيها قسوتَها، نبذَهم النعيم، أيديَهم الخشنة، وطباعَهم الفجّة. طاردهم الفقر حتى اصطدم بالأرض الوعرة، بقعر الجبل البعيدة عن النهر والحقول الخضرة. ليس لديهم رغبة في نبشه؛ أملًا في العثور على قطع أثرية، فهم يعلمون أن الفراعنة بكل جبروتهم لم يقووا عليه، ولم يمنع ذلك البعضَ من المحاولة! والبحث عن سراب سيؤدي بهم إلى الجنون أو الموت.

خرج الرجال لتقطيع حجارة الجبال البيضاء، تحت لهيب الشمس الحارقة، ووطأة الظلم، بمقابل ضئيل لا يكفي علاج أحدهم إذا أصابته مناشير الماكينات

المتربصة بهم. الأفق محمّل بغبارٍ أبيضَ خانقٍ يجعل الرؤية ضبابية، والتنفس للأقوى، يكسو أجسادهم بطبقة بيضاء رقيقة أخفت لون أبشارهم القاتمة، وجباههم المُقَطِّبة.

أنهى جلال فترة عمله الممتدة لشهرين، دخل حمامَ المحجر البدائي، صبّ الماء على جسده، جلّى الجير الرابض في شعره الخشن، ووجهه الأسمر حادّ القسمات، كأنه طلاء رخيص، ومن بقية جسده، خرج نظيفًا مرتديًا ثوبه الرمادي، وشاله الأبيض. انتزعت شدة الحاجة فرحتَه بأجره الزهيد، عاد إلى حضن الجبل بقامته الطويلة، وجسده النحيف ذات العظام البارزة.

الجبل معجبٌ دائما بابتسامته الراضية، وبنظرة الأمل في عينيه الثاقبة، كلما عاد من رحلته الشاقّة، يعرف جيدًا المكافأة التي يستحقها: فتاةٌ تقيم في القرية، اكتسب قلبُها عنادَ الجبل وكبرياءَه، لا قسوته، ويحمل الجودَ والخيرَ كطباع أحد أنهار الجنة. جسدُها غضّ، يكسو جلدها الناعم ندى طاهر، ووجهُها قمر مخبأ تحت خمارها الأسود.

الجبل مفتون دائما بجمالها الأخّاذ، يختلس النظرات إليها؛ كلما اغتسلت وراء صخرته المحظوظة. أحد أركان بيتها انتشى بجمالها ليلةً فانهار جزءٌ منه. هُدم بيتٌ خاوٍ.

قبل أن تولد جاء منادٍ في المنام لأبيها منتصر، يبشره بها، ويعلمه أن اسمها منال، عكّر صفو الأب الحالم بالولد. ظلّ وجهُه مسودًّا وهو كظيم، عندما وُلدت ورأى محيَّاها تبدّل حاله، اعتبر الحلم رؤيا من الله؛ فأسماها "منال" فعلًا.

خشونة طباع جلال، وفجاجته، لا تصلح لباسًا لها، بنعومة جسدها الناضج، ولونه الماسي، لكن الغرائب منتشرة في حضن الجبل، وربما القدر له رأيٌ آخر.

وهي عائدة من حملة إلى المدينة بجمالها الأخّاذ، متّشحة بالسواد إلا عينين كشفتهما، ليُفتَن بهما، وتخالج ملامحه اليابسة دواخل قلبها، رأته يقف أمام بيته بثوب فضفاض، يشعُّ وجهه رهبة، تصلّبت مكانها مثل الجبل، حملقت فيه بهيام، كأنه قد ربطتهما علاقة في قديم الأزل، ارتعد منها، تقدم خطوة للأمام متحفزًا للقتال، أنزلت الستر، فكُشف وجهها، طالعَهُ بشغف، تحول ارتعاده إلى ذهول! خجل الجبل من مشاهدتهما، توارت الشمس خلفه، طال وقوفهما وعيونهما تائهة في تأمل الملامح، بين استغراب وعدم تصديق! الذئب وحده من يراقب، لم يعجبْه المنظر، طالب بما يراه حقًّا له، عوى ثم ارتفع عواؤه، ركضت منال تجاه بيتها، فتبع جلال قدميها وهي تخطو على الصخر الصلب، الذي يلين لها ضعفًا واستكانة حتى دخلت بيتها، وأغلقت الباب خلفها بعنفٍ وارتجافِ مطارَدٍ، اطمئنَّ عليها وعلى نفسه، ثم استدار عائدًا إلى بيته.

لم يخش أحدهما من الظلام، أو من أنياب الذئب الحادة، بل من ملامح وجهيهما. الاثنان يظنان أنها أضغاث أحلام، أصبح لقاؤهما بعد هذه الصدفة الغريبة محتّمًا، فأرواحهما متآلفة قبل لقائهما بزمن بعيد، وأحلامهما واحدة!

لن يذق أيٌّ منهما طعم النوم تلك الليلة، ظلّ جلال ساهرًا يناجي القمر، يشكو تباريح قلبه، القمر عابس في وجهه، يغار على محبوبته التي سرق لبها منه، وأوقعها في حبِّ ملامحِه الخشنة الفجة. ضاق بالبيت وقتَ السحر، صعد أعلاه، نظر للأفق المشعّ ناحية بيتها، وجد كتلةً سوداء رابضة، تزيّنها نجمة ساطعة أعلاها، يعاكسه ضوؤها، قال في نفسه:

- ما قصتكِ؟

- أجابته: ما قصتك أنت؟

هامت العيون بالعشق، وتواعدت بلقاء في الصباح الباكر، والندى يتساقط قبل استيقاظ الطيور، لقاءٌ يرعاه الجبل بين صخوره، ثم اختفت وسط الوحشة، كما ظهرت من المجهول.

في الصباح كان ينتظرها وجبينه الأسمر نديٌّ، عندما وصلت ارتجفت أوصالهما، وخفق قلباهما بشدة معًا، تمالك نفسه، اقترب منها بضع خطوات، كشفت عن وجهها، اضطربت عيناه من نورها الساحر، وخجلا كلاهما. وجهها شديد البياض

رغم اسمرار كل من يسكن حول الجبل، مدت يدَها تتحسّس قسمات وجهه، دون أن ينبسا بكلمة، ثم قالت:

- لقد حلمت بك في الليالي السبع الماضية قبل أن أراك.

- أنا أيضًا حلمت بكِ سبعَ ليالٍ.

- كيف حدث ذلك؟!

- لا يهم، المهم أنكِ حقيقة، وكم تمنيت ذلك، ودعوت الله سرًّا أن يجمعني بكِ.

- أنت تعرف العرف، وكم هو عنيد، ومتمسك بعاداته.

- سنتمرّد عليه إذا ظَلمَنا.

- لا يغرنّك صمود الجبل، وبأسه، لا سبيل لنا بمحاربة القرية.

- لن أيأس ما دام الحلم مستمرًّا.

تفرقا والعشق يجمع بينهما، والأمل يحوطهما، والخيبة تتربص بهما، العرف ضدهما، يبشرهما بمعادات القرية لهما، فقد اتفق الجميع ضمنيًّا منذ زمن دون مشاورة أحد: ألّا يزوجوا بناتهم من شبابهم؛ خشية إملاق، وأملا في إنقاذهم من حياة البؤس وسط قسوة الجبل، طبّقوا الاتفاق بصرامة وإصرار عجيبين، ولم يجرؤ أحد على مخالفته قط، أو مناقشته.

الغيم المتكتّل في السماء يحجب نور الشمس، يُنذر بعاصفةِ غضبٍ تلوح في الأفق. بنار مستعرة، بدأت شرارتها بين مأوى الصخور المتعاطفة.

مرت الليالي التالية في هدوء تام، ستعقبُه عاصفة هوجاء، كل ليلة يصعدون فوق سطح منزلهما، ليتقابلا تحت جنح الليل؛ بعيدًا عن العيون الرافضة، أثناء لقائهما يسطُع فوقهما نجمان تائهان، غريبان عن السماء، ضوؤهما خافت لا يكشف سترهما.

ازدادت الأشواق. هاج الحنين، واضطرمت القلوب حرقةً. لم يكن أمام جلال إلا الكشف عن الحريق المستعر لهيبه داخلهما، صارح أهله برغبته في الزواج من إحدى فتيات القرية. لكن القرية لا تحب تزويج شبابها من بناتها! لم تكن الوجوه مبتسمة فتعبس، والقلوب لينة فتقسى. عبّر الصمت الرهيب فور سماعهم النبأ عن شدة صدمتهم! وقف أخوه الأصغر مذهولًا ينتظر رد فعل الأبوين لكنه تأخر، ردّد على مسامعهم الطلب مرة ثانية، فهاج الدم في عروق أبيه "جابر"، وتصاعد لهيبه ليحرق آمال العشق، ثارت ثائرته، بدّد الصمتَ، اندفع نحوه موجهًا له الإهانات والوعيد. أمه "خضرة" تنظر شزرًا له، غمرهم جو مشبع بالانفعال والحنق. اختنق من شدة الغضب، لم يسألوا عن العروس، لم يقنعهم العشق الصادق، ولا أضغاث الأحلام، اعتبروها هواجس، ومحاولة للتضليل.

شعر بالخزي، وضياع الأمل، بالغربة لأول مرة وسط أهله، وتحت إصراره وتهديده بخطفها، سألت أمُّه: مَن العروس؟ فأشعل اسمها في البيت نارًا لن ينطفئ لهيبها ما داموا أحياءً!

أثار اسمها قائمة من أسباب الرفض، وموجةً من الكره والحقد، أحيتْ عداوةً قديمةً، وثأرًا انتهى بصلح مضطرب، تقلقه أبسط الأزمات، فكرة الزواج وحدها كفيلة بالإطاحة به، ودفنِه تحت الجبل، وإيقاظ العداوة النائمة بعين واحدة.

أفراد العائلتين أبناء المتسببين في الثأر الذين دُفنوا منذ زمن مديد، وماتت الرغبة في الثأر معهم، لكن العداوة لم تمت، وظلت باقية تؤرّق مضاجعهم.

وقف جابر بمنتصف البيت ثائرًا كالثور، وخضرة تخبط كفًّا بكفّ، وتندب حظها. أسند جلال ظهره للحائط وهوى بنفسه على الأرض، العشق يستعر داخله، وجه منال لا يفارق قلبه الخائف من فقدها، تداعب بأناملها الناعمة أوتاره الذي يكاد أن يتمزّق، أحنى رأسه، وضع يده على عينه المطبقة، وغاب عنهم.

لفظته لطمة أبيه على وجهه من غيابه، وهو يقول له:

– ألا تسمعني، لن تعيش في هذا البيت ما دمتَ تريدها.

بكى لأول مرة في حياته، لم تعرف خده طعم الدموع قبل اليوم، فمنذ نشأته في حضن الجبل وهو صلب، لا يتأثر بفجيعة، لكن عندما رأى بريق عينيها،

وأشواقها المفعمة باللّهفة، وسمع دبيب الحنين في قلبه؛ لانَ ورقَّ. صغُر الجميع في نظره، خرج هائما على وجهه.

صرخ أبوه: أتظن أن أباها سيقبل، سوف يقتلها قبل أن تمسّها.

لم يعبأ بصراخه، سار في طرقات القرية الوعرة، يتخبّط بالمارة وجدران البيوت، يمضي إلى وجهة غامضة، وجد نفسه فجأة عند بيتها، وهي واقفة أمامه، متّشحة بالسواد، تحمل جرّة فخارية فوق رأسها، اهتزت أركانها وارتجفت؛ رحمةً بحاله الأليم، سقطت الجرّة فتهشمت، كما تهشمت قلوبهما قبل أن تنعم بالحب، فهمتْ ما حدث، فتدفقت دموعها على خدها النديّ، أيقنا أنهما متفرقان لا محالة قبل اجتماعهما، ورأيا الشتات الذي ينتظرهما شاخصًا أمام عيونهما جراء عشقهما المنبوذ، لو علم منتصرُ بالأمر؟ لابد وأنه سيهيل الجبل فوقهما، وسيحيي الثأر من جديد، وسيكون هذه المرة أشد شراسة وغضبًا.

يقفان متقابلين كالنتوء البارزة في ظهر الجبل، كسر جلال هذا السكون باقترابه منها، تراجعت للوراء، حاولت أن تثنيه عن الاقتراب، لم يشأ الإنصات لها، أمسك أناملها الباردة، وهي ترتعش من هول الحدث، قال:

– سأطلبك من أبيك عندما يعود.

تلعثمت نظراتها وهي تحوم حولهما؛ لترى ما إذا كان هناك أحد يراقبهما، فعلى الرغم أن معظم الرجال غائبون، يقطعون الصخر الأبيض ويحولوّنه لِلَبِناتٍ بحماس، إلا أن عيون نسائهم حادة، ودمهم حامٍ كدم رجالهم.

كرّرت على مسامعه ثلاثًا حتى أجاب: لن أذهب من هنا.

صرخت في وجهه ثم دخلت البيت، واختفت داخله:

- ستتسبّب في مقتلنا.

ليست الجرأة وحدها من دفعته لفعل ذلك، بل أشواق الحب المفعمة بالحنين الجارف، صعد الجبل، ناجى الله، دعاه بحرقة؛ لتكون من نصيبه المكتوب، احترقت الشمس، اختفت داخل السماء؛ لتفسح المجال للقمر الغائب، قضى ليلته فوقه وسط ظلام دامس، وعيون الذئاب الجائعة التي حرسته طوال الليل بعدما رأفتْ بحاله، وهو مستكين، خائر القوى، ترقّق عواطفُه صلابتَه وشدتَه.

انزوت منال في زاوية حجرتها منهارة، تبكي دموعًا ساخنة على حبها الوليد، مستسلمة لقدرها الذي طالما رضيت به، تدور في رأسها أفكار كثيرة، "لن يوافق أبي، سيقتله إن حاول الاقتراب مني. عادات وعرف القرية. العداوة التي بيننا. الثأر الذي ربما يولد مرة أخرى"، زادت أفكارُها دموعَها، فتجمعت على أرض الحجرة، سقت بذرةً لزهرة بريّة مختبئة تحت قدمها، ربما تكبر وتكون شاهدة على قصة حبهما الغريبة، وتخفف عنها آلامها.

لم ينم جلال ليلته، لكنه حلم بها وهو يقظ، طيفها لم يفارقه، جلس معه يسامره، يؤنس وحدته تحت ضوء النجوم. والنجمان التائهان التقاها في الجنة كما تمنّى، بعيدًا عن النفوس المعبّأة بالشر، والقلوب الجافية، وقفا تحت شجرة تفاح، قطف ثمرة لم ير مثيلًا لها، أكلت منها وهو يمسكها بين يديه، تغمرهما السعادة، وتحيطهما نسمات الحب المفعمة بالأشواق والمودة، وأبصارهما زائغة في ملكوت يحقق رغباتهما..

فكر كثيرًا: ماذا يفعل مع أهله والقرية؟ الذين ناصبوه العداء قبل أن يولد، اهتدى للفرار بها حتى تخوم الحجاز، لكن الهرب لم يرق له، فقرر مصارحة أبيها فور عودته، ولو رفض سيحيي هو عداوةً جديدةً وثأرًا؛ من أجل حبه المرتهن الذي يريد استعادته.

عاد منتصرُ وهو محمّل بالهداية لابنته الغارقة في بحر التيه، اعترت جلالَ حالةٌ من التهور. وسط المسجد بعد صلاة العصر، حين رفرفت فيه نفحة من السكينة، طلب منه ابنته للزواج؛ ظانًّا أن قدسية المكان ستمنعه من الرفض، جاء رده أقسى مما توقع، قال له بنبرة جافية لا تخْلُ من الوعيد:

– ليس لديّ بنات للزواج!

غادر لبيته وهو يضمر الشرّ تحت إبطه، ركل باب حجرة ابنته بقدمه، فانفرج واصطدم بالحائط! فزعت، قفزت من فراشها مبتعدة إلى أحد الأركان، أمسكها من ذراعها، سحبها لوسط الغرفة، وهو يصفعها ويركلها بقدمه، ويصيح فيها:

- كيف عرفت هذا الوغد؟

- أيّ وغد؟

- أتنكرينه! وقد تجرأ وطلبك للزواج!

اجتاحتها موجةٌ من الغضب والتمرد، وانفجرت فيه باكية:

- أين العيب في ذلك! إن كان يريد أن يتزوجني.

أجابها بمزيد من اللّكمات على جسدها، والصفعات على وجهها، قائلًا:

- إنهم عائلة وضيعة، قَتَلةٌ.

هبت العاصفة المترقَّبة، وأظهر العداء علنًا، أمست القرية متربصة بأنباء التمرد عليها، وعلى تقاليدها وأعرافها القديمة، انقسمت بين حانق، ومستمتع بما يحدث، لكن الجميع ترقّب ما ستسفر عنه الأيام؟!

سهرت منال حتى مطلع الصبح، مؤَرَقةً من ألم الضرب والحب، وجلال مثلها تؤرقه آلامه، غشيهم النّعاس، لم يريا بعضهما في الحلم، بل لم يريا أية أحلام أو حتى كوابيس مخيفة، استيقظ جلال تحت وطأة أشعة الشمس التي تخللت

من خلال النافذة المشرعة، وقف أمام والديه، وأعلن أنهما سيهربان بعيدًا، حيث لا يستطيع أحد العثور عليهما، أخافتهم الفكرة؛ بعدما رأوا علامات الجدية والعزم تُميِّزه، خاف جابر من التهديد، فذهب لبيت منتصر الذي يحوطه الرفض من كل الأركان؛ كي يصل معه لحل ينجيهم، أخبره بكل شيء يعرفه: أضغاث الأحلام، مشاعر الحب الذي خرج من المجهول، فرَّده خائبًا، استشاط غضبًا، وغيرةً على ابنته. حبسها في حجرتها، وضَنّ عليها بالسعادة والهناء.

القلوب تائهة وسط مسالك الحب الغامضة، والعاصفة الهوجاء ما زالت تعصف في الأفق، وجابر، ومنتصر، والقرية لا يعترفون بالحب، ولا بأحلامٍ تأتي في الرؤى.

رق الجبل لهما، فذرف دموعه من تحت صخرة صماء في قمته؛ فتدفّقت عينًا منحدرةً على القرية عذبةً نقيةً، نبت حول مجراها أزهار برية زاهية الألوان، كالتي نبتت في حجرة منال، وأطلقت عبيرَها الفواح بين النسمات. استبشرت القرية بعين الجبل، وبدأت قلوبها تكتسب طباع الجبل الجديدة، أيقنت أن عرفها يحتاج للتصحيح، لكن منتصر ظلّ على بداوته، لم يرقّ، ولم يلِنْ، ألحّت عليه القرية بالموافقة، ولم تمِلْ لهواه، تخلص منهم بدهاء. وضعُ رأيه مذبذبٌ بين القبول والرفض، لكن ضعف جسد ابنته، وصحتها التي تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، وروحها المعذبة؛ جعلته يتراجع عن المراوغة، ويضطر للموافقة وهو يشعر بالهزيمة والانكسار.

عاودت النجوم الظهور في السماء، والقمر، سطعت أشعة الشمس حنونة على جبينهما. هبت نسمات تلطف الجو. الطيور تغرد فتطرب الكون البديع بألحانها، لم يهتم أي شخص بتزيين القرية التي استقبلت الخبر بسعادة يشوبها الجمود، لم يكن جلال ومنال بحاجة لزينة، فالحب يزين كل شيء في عيونهما، ويجعله جميلًا.

توقفا عن رؤية بعضهما في الأحلام، عاشا الحلم حقيقة، يلتقيان في العلن تحت أضواء الشمس الكاشفة، دون اعتراض. اعتسر التقهقرَ منتصرُ بعدما رضي بالخطبة على مضض. وعصيان ابنته له اعتبرها جنّت، تصرف كما لو لم تولد، تركها خلفه وعاد لتقطيع حجارة جبال المنيا.

فقد جابر الأمل هو أيضًا من معاودة الرشد لابنه، فلحق بمنتصر في الأفق الأبيض الممتد.

عاشا حياة مليئة بالحب، تجولا بين الزهور التي انتشرت حول المجرى، وكست الجبل، تبسمت لهم في وداعة، لا تُخرج عبقَها إلا لهما، وتتغذّى على رحيق العشق المنبعث من قلوبهما الطاهرة، التي أكسبت الحجارة الصماء الغامقة نعومتها وبياضها. شربا من الدموع العذبة، فأضفت على أجسادهما نضرة وطيبا. غيرت الطيور ألحانها؛ لتناسب أشواقهما الملتهبة. هجرت الذئاب سكنى الجبل، استوطنه اليمام المهاجر، والطيور الجميلة السابحة في ملكوت الله.

بعد فترة من التيه وسط سماوات العشق الحالم، ومحاولات الوقيعة بينهما التي لم تهدأ، حُدد موعد زفهما إلى جنتهما التي حلما بها، لم يصدّقا نفسيهما، عاودتهما الرؤى في الحلم، تبشرهما بالدعة والراحة، وبالخلود. اعتبرتْ كلتا العائلتين العرس مأتمًا، ونصبتا صوانًا؛ لأخذ العزاء في موت السلام بينهما.

في ليلة الزفاف دقت النساء الدفوف على حذر، ضحك الجميع ضحكات مصطنعة، صويحباتها وأصدقاؤه فقط هم من ضحكوا بصدق، غمرتهم السعادة، ورغبة في الغناء، رقصوا بمرح، غلّف الحفل طابع أسطورة خرافية، زاد الإحساس بها مراسمه البسيطة.

خطت منال خطوتها الأولى على أرض حجرة الزوجية، يغشى عيونها الأمل آمنة مع الحب، قذفها الحنين إلى حضن زوجها، فاحتواها بعطف، توحد نبض قلبيهما، خفقا معًا كقلب واحد، النجوم والجبل لم يرغبا في السهر الليلة، غفت عيونهم، غطّت في نوم عميق؛ لتتيح للعروسين التمتع باجتماع أرواحهما وأجسادهم معًا.

في الصباح لم يهنّئهم أحد، مرت الليالي وهما يعيشان في نعيم لا ينضب، كلما نهلا منه ازداد.

عاد جلال لاستنشاق الغبار الأبيض، وقلبه معلق على صدر زوجته، عدّ اللحظات، النسمات، صوت الفؤوس، والأحجار؛ ليعلم متى يعود لجوارها، مرت

عليه الليالي طويلةً كئيبةً، حرمت عليه الراحة في مهجعه، وأثار ظلامُها حنينًا يجرفه؛ لتذكر ملامحها الدقيقة الغائبة عنه.

حظ منال أسوأ من حظه، بذلت كل المحاولات؛ لكسب رضا حماتها الحانقة عليها، ولم تفلح، عملت بجد في البيت، تحملت كل الأعمال الشاقة، أراحت "خضرةَ" فتنعّمت، واختفت الشقوق العميقة من يدها الخشنة. لم تُظهر لها أي رضًا إلا وسط جموع النساء، لم يخْفَ عليهم أنه رضًا كاذبٌ يتبعه أذى.

عاد جلال محمّلًا بالأشواق الجارفة، والعواطف الجياشة، التقَتْه منال بلهفة، ثم توحدا معًا تحت نشوة العشق، ضحك الجبل فجفّت دموعه، وغارت عيونه. اعتبرت القرية هذا نذير شئم، فقست القلوب بعدما عرفت اللين.

انتهت فترة الإجازة، غاب وهو لا يعلم أن جنينًا بدأ يتكون في أحشائها، هي أيضًا لا تعلم، لكن خضرة استشفّت الحمل دون عناء، ظلت تلاحظها عدة أيام حتى تيقنت، لم تبتسم، زاد العبوس على وجهها الفظّ، حزنت؛ لأنها سترزق بحفيدها البكر من المرأة التي تكرهها.

عندما عاد جلال لم يكن الحمل خفيًّا، فعامل منال كالجنين الذي تحمله، قاومت هذه المعاملة التي أشعلت مزيدًا من مشاعر الحقد والحنق عليها، حاولت القيام من فراشها الذي ألزمها بالمكوث فيه، فرفض بشدة، قلبه يحس بمعاناتها مع الحمل التي ستزداد خطورة مع مرور الأيام.

يوم رحيله اكتأبت الشمس، وحزن الجبل، توقفت الطيور عن الغناء، وبناء أعشاشها، وطرحت بيضها خارجه، جفت الزهور البرية التي لوّنت الجبل، لكن ظل عبقها يحوط حجرتهما. تُرى هل يعلمان بالمصير الذي ينتظرهما؟

اشتدت معاناتها، وتفاقمت حتى دقت ناقوس الخطر، لم تشفق عليها الحماة الغاضبة، أضمرت لها العمل الشاق رغم وجعها، تأملُ أن تُسقط الطفل الذي إذا ولد سيُنبذ من كلا العائلتين، مضت تنفّذ خطتها دون هوادة، ولم تلتفت إلى ضعف جسدها النحيل، وعدم قدرتها على التحمل.

في ليلة اختفى فيها القمر والنجوم من السماء، صرخت منال صرخة مكتومة، والدم ينثال من بين قدميها بغزارة، استيقظ أهل البيت بعدما علا صراخها، لم يفكر أحد في أخذها للمستشفى، أو استدعاء طبيب، حاولت خضرة نجدتها دون رحمة، وهي تتمنى ألا ترى نور الفجر. أصبحت أطرافها باردة، اختفت عروقها، اصفرّ وجهها، أصاب عينيها غشاوة بيضاء، انقطع الدم، حاولت قول شيء لحماتها وهي تشير بيدها للأعلى لكن يدها سقطت، غابت عن الوعي! وهي تنظر لها دون تأثر، وكرهها لها ما زال مستعرًا بداخلها.

لم يعد مقدّرًا لها الحياة في الدنيا، ففارقتْها، ودمعةٌ متألقةٌ في مقلتيها لم تُذرَف بعد، ذرفتْها بدلا عنها غيمةٌ من الغيم المتكتل، فسقطت واصطدمت بقمة الجبل المفجوع بموت منال. ارتجف، اهتز بعنف، فاستيقظت القرية مذعورة، وخرجت مفزوعة للطرقات؛ لتكتشف ما يحدث، انهالت الصخور غاضبة عليهم، فولّوا

وجوههم هاربين، تاركين كل شيء خلفهم: البنين والنساء، لكن الكل تبعهم فارًا بنفسه. نجت الأنفس، ودُمرت البيوت، لم تبق إلا الحجرة المحتوية على جسدها، الشاهدة على ذكريات الحب والألم. عبق الزهور ينبعث هذه المرة من داخلها، استجمعت القرية قواها في الصباح، وأحصت الخسائر، وعلمت بالفاجعة.

استقبل منتصر الخبر برضًا وارتياح، فلطالما ما أراد التخلص من هذا النسب، وقد تحقق مراده بموت ابنته التي لم يُفق حزنُه عليها شعورَه بالارتياح!

جبنت القلوب، وجفت الألسنة، لم يتجرأ شخص على محاولة إخبار زوجها، تنصّل الكل من المسؤولية، تعالت الصيحات بدفنها في غيابه، الكل أيد، ففعلوها، وهجروا المكان بغير رجعة.

أقام أهله يوما فوق الأنقاض، يفكرون كيف سيخبرونه بموتها، أرسلوا له أخاه يخبره أنها مريضة، عندما التقاه ترك مِعْوله، ركض إليه، انتابته ظنون كثيرة لم يكن الموت من بينها؟! لم يخامره شك أنها ستكون في انتظاره في حجرتها عندما يعود، أو ربما تخرج لاستقباله على مشارف الطريق.

عندما وصل شاهد البيوت المهدمة، لم يهتم إلا بتلك الحجرة التي بقيت صامدة؛ لتحفظ قصتهما من الاندثار، بادره الأهل باللقاء، أحاطوا به، لم يمهلوه وقتًا طويلًا؛ ليستعلم عما حدث؟ أخبروه بفجيعته، لم يصدقهم، نادى عليها بأعلى

صوته؟ فلم ترد! كرر النداء وما من مجيب! دخل حجرتها وجدها خاوية، خرج إليهم وقد أظلمت الدنيا في وجهه، ثار عليهم:

- أين أخذتم منال؟ أين سويداء القلب؟

ساقوه إلى قبرها الذي لم يجفّ بعد، أروه إياه، لم يتمالك نفسه من شدة الحزن، هاج عليهم، اتهمهم بقتلها، ظن الجميع أنه فقد عقله، فتركوه عند القبر وحيدًا، ورحلوا.

قضى سبع ليالٍ عندها، كان يحلم بها كل ليلة، وهي تعانقه، تضمه بحنو إلى صدرها دون كلام، وفي النهار يردد اسمها بشَجَن في الأفق الحزين.

ذات صباح استقل قطار التائهين، الفارين من جحيم الصعيد؛ ليحلّ ضيفًا على التيه.

(٥)

عبد العزيز

علا فجأة صوت نداء عبدالعزيز المستغيث من شدة الألم، استيقظ ولده عمر على صوت أنينه، وتوجعه، هرع إليه مسرعًا؛ كفيض غاضب يغمر سهلًا منخفضًا... أمسك بذراع والده الغارق في عرقه...عيناه الواسعتان الممتلئتان خوفًا؛ تنهدُّ منه الجبال هدًّا...تحدقان فيه...تتوسلانه الرحمة...جسده المتهالك ينتفض من شدة الألم...وضع يده على جبينه الرطب، البارد...برودة كانون؛ تبعث التوجس والحيرة، حمله بين ذراعيه، وخرج به وسط الطريق، استوقف سيارة أجرة...وضعه برفق ثم قفز فيها، انطلق بهم السائق مسرعًا ينهب الأرض نهبًا...يتمنى عمر لو أن الطريق إلى المستشفى قصير قصر الحياة...قصدوا المستشفى الأقرب لهم، مبنى حكومي عتيق، لونه باهت، يتساقط طلاؤه كلما عبرت سيارة بجواره، ظل ينادي بأعلى صوته على من بالداخل، أجابه بعض

الممرضين بكسل رتيب يدل على رداءة خدمتهم. قالت له إحداهن وهي تشير بيدها الممتلئة بالشحم ناحية غرفة بابها منخلع:

– أدخله هنا، سأوقظ الطبيب.

وضع عمر والده برفق فوق السرير الحديدي الصدئ والوحيد، الموجود بتلك الغرفة الكئيبة، بعد قليل جاء الطبيب والممرضة خلفه، يسيران بتثاقل، وببطء ممل، وبأقدام متهالكة.

قال الطبيب مخاطبًا عمر بصوت هادئ:

– خير؟

بصوت يميزه الاضطراب:

– لا أعلم لقد فوجئت بحالته.

– هل يشتكي من مرض ما؟

– السكري، وعدم انتظام في دقات القلب.

كشف الطبيب عن ساعده وهو مازال يعاني من أعراض النوم...قاس نسبة الضغط، وهو يسأل: ما اسمك يا أستاذ؟

قال بصوت واهن لا يكاد يسمع، وبنبرة مرتعشة، أعقبها بتأوهات خرجت من أعماق صدره المنهك الهرم:

– عبد العزيز.

وضع الطبيب جهاز قياس الضغط القديم على منضدة حديدية قديمة، صدئة، لم يتفوه بدرجته، قال بصوت جَهْوَرِيٍّ مخاطبًا مساعدته السمينة:

– قيسي نسبة السكر يا مدام أحلام.

بجسدها الممتلئ، وحركاتها البطيئة...أدت مهمتها، وقالت:

– مضبوط يا دكتور مائة وخمسون!

نظر إليها نظرة خاطفة كأنه يؤنبها، ثم قال وهو يستدير لعمر:

– سوف نحول الحالة إلى المستشفى العام. اذهب وأيقظ سائق الإسعاف، وأخبره أن هناك حالة.

هكذا أصبح والده (حالة) يتبرأ منها الأطباء! يحاولون التخلص منها كلما أمكنهم ذلك، كأن به جرب يخشون أن يصيبهم، سعى عمر إلى موقف سيارة الإسعاف وهو يتمتم بصوت خافت حالة! أنتم تسمون المريض حالة! وجد غرفة بابها مفتوح قليلًا، يخرج منها دخان كثيف، ينبعث منها ضوء خافت باهت، رائحتها نتنة، يجلس بها رجلان قد أهلكا جسديهما بدخان سجائرهما المسموم، وينفثونه في الهواء ليرفعوا نسبة تلوثه التي لم تعد تحتمل، أصابهم الضجر عندما دخلتُ عليهما وشاهدا علامات الخوف والقلق تسبقني إليهم.

لاحظ عمر ضجرهما لكنه لم يهتم، فلم يتوقع لحظة واحدة أنهما قد يتجردان من الرحمة ومن الإنسانية –معًا– بل ويفصحان عن ذلك، ولكنه أخبرهم بوجود حالة حرجة، وبحاجة للإسعاف، وهو لا يعرف أيهما السائق المطلوب.

أجابه دون أن يصدر أي حراك، أو يبدى أيَّ اهتمام:

– تنقله الإسعاف التي جاءت به!!

صدمته كلماته، فقال بانفعال:

– ليس من حقك أن تعترض، أو ترفض نقله.

قال متحديًّا:

– لن أنقله، ولو ستموت الحالة.

انفجر فيه غاضبًا، ينفث حنقه وغيظه، ولكنه لم يصل معه إلى نتيجة، فعاد للطبيب وأخبره بما حدث عله يجد حلًا.

قال الطبيب بهدوء شديد، وكبرياء:

– أخبرته أني أنا من أرسلك؟

– نعم!

– اذهب وحاول معه مرة أخرى قد يرضى، سوف أقدم شكوى ضده في الصباح.

تطوع أحد العاملين بالمستشفى بمهمة إقناع السائق، بعدما سمع بعزم الطبيب على تقديم شكوى، معتقدًا أن الإقدام على مثل هذا العمل ظلم! لا يرضى به! ردة فعلهم جميعًا صدمت عمر أشد من فعل السائق نفسه، تحولوا جميعًا إلى مجرد موظفين كسالى وغير أكْفَاءٍ، وغير جديرين بأداء وظائفهم الحساسة، فأقل خطأ فيها سيؤدي لمزيد من الألم، أو فقد الحياة.

جاءت سيارة الإسعاف، يقودها سائق آخر، أشد ضجرًا وحنقًا من صاحبه، لا يخجل من سوء أدبه، وترديد كلام لا يليق. زجوا بعبد العزيز داخلها، في محاولة للتخلص منه بنقله بأقصى سرعة، والعودة إلى سهرتهم. انطلقت السيارة بخفتها الروتينية قاصدة المستشفى العام، وجلس عمر داخلها على مقعد مثبت، ووالده ينام فوق حمالة بجواره، معهم مسعف ينظر إليهما كأنهما شوكة غليظة مغروسة في جنبه، دون أن يقوم بأي إسعافات أولية، حاول أن يداري حنقه خلف كلام معسول، مستخدمًا أسلوبًا رخيصًا في إقناعه، فلم يبد عمر له أي اهتمام يذكر، بسبب قلقه على والده، وتعبيراته التي ما زالت تدل على عدم رضاه عما حصل.

سيارة الإسعاف مغلفة بالكامل، حتى نوافذها الزجاجية مغطاة بملصقات متنوعة كمنتج جديد يحتاج إلى تسويق، لا يشعرون من هم بداخلها أنها تسير، فسأل المسعف:

- هل اقتربنا؟

– سنصل قريبًا.

توقفوا أمام مبني المستشفى العام، الأكثر حداثة من سابقه، فتح الباب، أنزلوا عبد العزيز بسرعة، لم يهرع إليهما أحد لمساعدتهما، الكل منشغل في عمله، ينظرون إليهما بريبة كأنهم لصوص، أدخلوه لقسم الاستقبال! ومنه انطلقت مرحلة أخرى من ألم مرضه المجهول، ومن رتابة المستشفيات الحكومية.

– هل يشتكي من مرض ما؟

– السكري، وعدم انتظامٍ في دقات القلب.

– ما اسمك يا أستاذ؟

أجرى الطبيب الإجراءات السابقة نفسها، كأن الأطباء قد اتفقوا في مؤتمر عام على اتباعها، بعدما فرغ منها قال:

– انتظر، سأرسل له طبيب الباطنة.

ذهب، واختفى وسط العاملين، وزحام المرضى والجرحى الذين توافدوا الليلة بكثرة كأنها مدينة ملاهٍ.

مضت نصف ساعة، ولم يأت إليهما أحد، أو يلقي لهما بالًا، كأنهما أحد هذه الأجهزة الطبية الخربة المثبتة على الحوائط في كل ركن. بحث عمر عن الطبيب بين الزحام، فلم يجده، غير أنه وجد طبيبًا آخر يجلس خلف مكتب خشبي،

مغطى بالأوراق والملفات، وبقع الدم، وبعض الحقن المعبأة بسائل شفاف، وعبوات زجاجية صغيرة، سأله عن الطبيب، حكى له قصته بعجل عله يجد عنده الاهتمام المفقود منذ خطت قدماه هذه المستشفى، أجابه بنفاد صبر –قبل أن يكمل كلامه– الطبيب في قسم الباطنة، وسوف يأتي بعد قليل.

لم تشفع لعمر علامات القلق، والخوف من فقد والده، أظهر غضبه للطبيب الذي تعلل بكثرة الحالات، وقلة الإمكانات، فلم يجد بدًّا من الانتظار حتى يأتيهم قدرهم المنتظر.

بعد فترة قصيرة أطل عليهما طبيب الباطنة، بطوله الفارع، ووجهه الشاحب المصفر؛ كليمونة مخزنة، أشعث الشّعر، جاف النّظرة، داكن البشرة، فحصه سريعًا كغيره من الأطباء، ثم أمر الممرضة أن تأخذ منه بعض عينات دم لتحليلها، وإجراء بعض الأشعة الطبية، وإعطاء نفسه فرصة ليستريح من أنينه. تأخرت نتيجة التحليل حوالي ساعتين قبل أن تظهر على ورق أبيض باهت، نظر إليه الطبيب نظرة خاطفة، لم يكتشف حقيقة مرضه الغامض الذي يقف وراء أنين لا يتوقف، هنا عاود طرح أسئلته الغبية لكنها جديدة:

– هل أزعجه شخص ما؟

– لا.

– انتظر، سأرسل له طبيبًا نفسيًّا ليفحصه.

ألقى الأوراق التي بيده، ومضى تسبقه مساعدته الرشيقة نحو مريض أخر ينتظرهما منذ زمن ومعه أوجاعه، لم يطل انتظار عمر وعبد العزيز للطبيب النفسي هذه المرة، الذي تفحصه بعين خبيرة تجاوزت الأربعين عامًا من عمرها، ثم قال:

– هذه ليست حالة نفسية، من الطبيب الذي فحصه؟

قال عبد العزيز بكلمات مضطربة ووجه شاحب، وقد بدأ يستعيد شيئًا من وعيه:

– طويل، وأسود.

نظر الطبيب إلى عمر، ففهم الأخير فحوى السؤال، وقال:

– طبيب باطنية لا أعرف اسمه.

انصرف الطبيب دون أن يتفوه بكلمة تطمئنهما، بعد فترة قصيرة جاء طبيب الباطنة...أعاد فحصه المُمِلَّ الذي لا يجدي، بعد ذلك قرر حجزه لأجراء مزيد من التحاليل، والأشعة لمعرفة مما يشتكي.

بعد انتظار دام ساعات، جاء عامل نظافة بثياب رثة، يدفع أمامه كرسيًّا متحركًا متهالكًا؛ أحد جانبيه منزوع، مدعم بأربطة من الشاش الطبي، حتى لا يتفسخ عن بعضه، وقال مخاطبًا عمر:

– هل يستطيع السير؟ أم سيجلس على الكرسي؟

لم تطل دهشته، حمل والده وأقعده على الكرسي، مضى خلف الرجل، وهو يسير بهم إلى مكانٍ جنباتُه مجهولةٌ لهم، استقر نهاية المطاف على سرير بأحد عنابر قسم الباطنة القابع في الدور الثالث، يحيطه المرضى بتأوهاتهم من كل جانب، وقد بدأ اليأس من شفاء والده يتسرب داخله شيئًا فشيئًا.

أرسلت الشمس خيوط أشعتها الأولى ببطء من خلف النوافذ المغلقة، كأنه نور ينبعث من داخل كهف كئيب، انتبه عمر لوجود نافذة بالعنبر تطل على الحياة... والنور، حاول فتحها بهدوء حتى لا يزعج المرضى الذين حرَّمَ عليهم ألمهم النوم، سرى في العنبر تيار من الهواء البارد، خفف بنسماته من حدة الروائح الكريهة، وروائح الأدوية التي تملأ جو العنبر الخانق.

شعر عبد العزيز بألم شديد في بطنه، وبضيق خفيف في التنفس، ظل هكذا دون أن يسعفه أحد، على الرغم من استغاثاته المتكررة، وبعد فترة طويلة جاءت طبيبة، فحصت كل المرضى على عجل، وبمن فيهم عبد العزيز، أمرت له مزيدًا من التحاليل، ووصفت له مزيدًا من الأدوية التي تتعارض مع ما وصفها له الطبيب الأول، كأنهم تخرجوا من مدارس طب مختلفة، تعتمد طرقًا متضاربة للعلاج، لم تسعفه هذه الأدوية، ولا تلك، ولم تخفف عنه ما يعانيه، بدأ ينزف دمًا من فمه على فترات متقطعة، أربك الأطباء، احتاروا حول السبب، كأنه جسم غريب هبط على الأرض حديثًا، ولم يكتشف بعد ماهيته، قررت الطبيبة أن

تجري له عملية منظار لتشخيص حالته، فمنعته من تناول الطعام، وشرب أيٍّ قطرات من الماء حتى إجرائها.

جاء الطبيب الأول بعد عدة ساعات، بضربة حظ عابثة بأرواح المرضى...عارض إجراء عملية المنظار اليوم! وحلل له تناول وجبات الطعام، ولكن...وبعد ثلاث ساعات أخذوه للطابق السفلى لإجرائها له!

أظهرت النتيجة أن الأوعية الدموية التي تقبع في أحشائه مهترئة، وتكاد تتهتك كخيوط قطنية أنهكتها أشعة الشمس، منعوه من الحركة، حتى من الذهاب للحمام لقضاء حاجته، ووضعوه تحت التنفس الصناعي، وأوصوا بنظام غذائي مخصص له، ومنعه من ذلك كله لهو الممرضين؛ كأنهم سياح يمرحون على شاطئ بحر غير عابئين بصحته.

بعد سويعات قليلة، ساءت حالته كثيرًا، بدأ الدم يتسرب من معظم فتحات جسده، استغاث عمر بإحدى الممرضات الكسولات؛ التي سعت إليه دون مبالاة، فلما رأت حالته هرعت إلى الطبيب النائم؛ تخبره بتطور الحالة حتى لا تعاقب، جاء الاثنان، وبعد قليل أُخرج عمر من العنبر، أفرغ من الزوار، ظل الطبيب يدافع الدم الذي يندفع من فمه على دفعات متقطعة، ويستقر فوق ملابسه، كدفعة سم ثعبان الكوبرى، عندما تهاجم أعداءها، فتوقف، حتى جيء له بلباس واقٍ.

أول شيء قيل لعمر: عليك التبرع بالدم، لأن والدك سيحتاجه، فهرع لمكان التبرع، وبعدما انتهى، عاد للقسم وأوصاله ترتجف، وترتعش كأنها أوطار تحت يد عازف مبتدئ، تجمع الدمع في مقلتيه استعدادًا للهطول، شعر بالغثيان والدوار، أقدامه لم تعد تقوى على حمله، فافترش الأرض ينتظر مشيئة الله تعالى.

حل الظلام، وعم الهدوء الرهيب أرجاء المستشفى الكثيرة الضيقة، كمتحف من الشمع أغلق أبوابه، ربطت أقدام وأيدي عبد العزيز في قوائم سريره الحديدي لمنعه من الإتيان بأي حركة، وتدلى طرف خرطوم أبيض رفيع في حلقه، حال بينه وبين الكلام، وربما وصل أمعاءه الممزقة، وثبت طرفه الآخر بمؤخرة السرير، وراح جسده يرتجف كأنه مصاب بالحمى، يعلو صدره وينخفض بصعوبة بالغة، وفي تتابع منتظم.

وعلى الرغم من مرور عدة ساعات...لم تصل أكياس الدم التي طلبها الطبيب، فقد أسند مهمة جلبها للممرضات، اللاتي اتَّكأن بدورهن على مقاعدهن ينتظرن تجهيز بنك الدم له كراقصات يجلسن في مأتم.

تدهورت حالته بعد منتصف الليل...انفجر الدم منه بغزارة؛ كعين يتفجر منها الماء، بدا أنها لحظاته الأخيرة، إنه ينازع الموت!! هرع إليه الطبيب وحاول منع تدفق الدم خارج جسده النحيل بشتى السبل التي تعلَّمَها، لم تكن كافية وحدها، ولم تُجدِ نفعًا، وعند بزوغ أول شعاع للفجر لم يقدر أن يراه!! فقد فاضت روحه إلى بارئها.

انهمك الطبيب في إعداد تقرير الوفاة كتلميذ يكتب موضوع تعبير في امتحان، أصبح فجأة يعرف كل شيء عن الحالة الصحية قبل الوفاة!! كأنه قد أعد عنه رسالة دراسات عليا، ظل يكتب، ويعدد أسباب الوفاة حتى امتلأ الجزء المخصص لذلك: "تمزق في الأوعية الدموية، هبوط حاد في الدورة الدموية، نقص في... و... توقف عضلة القلب".

ما زال عمر مستلقيًا على الأرض، غلبه النوم من أثر التعب، والإرهاق الشديد الذي تعرض له، أيقظه الطبيب قائلًا:

– البقاء لله أبوك توفى.

بقي صامتًا متحجرًا، يتأمل معانى الكلمات التي نطقها طويلًا، شعر بيأس مميت، أصبح يتنفس بصعوبة حتى كاد يختنق، لم يستوعب ما سمع، هدأت الأصوات كلها من حوله، ألا صوت طنين حاد في أذنه، ازدادت حالته تأزمًا، انتابته رغبة شديدة في التأكد من صحة الخبر، فهرع إلى والده بسرعة فائقة، كمتسابق في سباق ركض قصير، وجده مكفَّنًا بغطائه، والأرضية مغطاة بالدم المختلط بالماء والمطهر.

(٦)

ذات يومٍ ربيعيّ

أشرقت الشمس، وارتدى الصباح النور بعد عتمة الليل، استيقظتُ عند السادسة، الجو ربيعيٌّ يصيبك بالحساسية، رغم ذلك أنفاسه مفعمة بنسماتٍ تبثّ في الروح التفاؤل، شعرتُ بالسعادة التي لها في الكون مبرر، نتيجتها: أن تحيا حرًّا طليقًا، تمدك بالحيوية والنشاط، بالأمل في صنع المستحيل.

استيقظتُ على موسيقى صوتِها العذب؛ كما نعستُ؛ وكان السببَ في نوم هانئ، وأحلام سعيدة، وثبتُ من فراشي كجمبازي خبير، أخذتُ حمامًا باردًا، ارتديتُ ملابسي بعد أن مرّرتُ عليها المكواة عدة مرات، لمّعت حذائي الأسود بعناية، ضاعفتُ كمية الكريم على شعري، والعطرَ على جسدي وملابسي، طالعتُ المرآة مرة أخيرة، بلغ حسن مظهري مداه، بدوت في سن العشرين، رغم تجاوزه بأربع سنوات، تناولتُ إفطاري بتؤدة وتأنٍ: ملعقة عسل أبيض، رغيف خبز أسمر،

قطعة جبن، ثمرة تفاح أخضر، وكوب قهوة بدون سكر، في العادة تشبعني هذه الوجبة، لكن هذا الصبح أرغب في التهام المزيد، قاومتُ رغبتي، وانطلقت للعمل، دون أن أمارس وردي من تمارين الصباح.

استقبلتني الشمس بدفء وعزة، قبلت دفئها، وبادلتها العزة، أرى أشعتها ناصعة، وزرقة السماء تميل للون الوردي، وسحابة وحيدة كباقة زهر، يفوح منها عبير نافذ أخاذ، انطلقتُ أستمتع بالكون، وبنسيمه المنعش، والمارة يتأملونني، يشاركوني البهجة!

توجد مهام عالقة منذ أمس، يجب إنجازها على وجه السرعة، بنفس الروح التي استقبلني بها الصباح أتممتها بإتقان وحرفية، ربما يرضى عني المدير الذي لا يرضيه شيء، أخبرته بإتمامه، انتظرت أن يثني عليَّ، يكافئني، يعطيني أقل تقدير وهو الشكر، طالبني بالمزيد، وأملى عليَّ قائمة طويلة أخرى من أوامر واجبة النفاذ، تبًّا!

بنفس الروح التي استقبلت بها يومي سعيت لتنفيذها، تفحصت شاشة الهاتف، لم تصلني رسائل جديدة منها، لم أمتعض! فأنا أعلم أنها تفكر فيَّ كما أنشغل بها.

سمعتُ الكونَ يغني دون بيان عبر صفير البلابل، وزقزقة العصافير، اندمجتُ مع اللحن، أطربني، ذابَ إحساسي معه، عمّت البهجة، داعبتُ المرح، تراقصتُ

في الحديقة التي وجدتْني وسطها، دُرْتُ حول نفسي مرتين، ثم أعدت الكرة، قفزت في الهواء بجنون، أحببت في هذه اللحظة أن أقوم بمغامرة جسورة حد التهور، تستهلك كل مخزون الإدرينالين داخلي، وهي تشاركني إياها!

تفحصت شاشة الهاتف مرة أخرى، لا شيء، بينما أنا مستمتع بالغناء، طلّ من بعيد المبنى الحكومي الذي أقصده، تأملت واجهته الخارجية للمرة الأولى مذ رأيته، ليس عتيقًا آيلًا للسقوط كمعظم المباني الحكومية، مظهره ملفت للأنظار، وتصميمه المعماري ذو طراز حديث، متداوَلٍ لكن مميز، أُولِيَتْ عنايةٌ فائقةٌ بتفاصيله، يتخذ شكل قلب أو زهرة، لكن دون انحناءات أو بروز، جوانبه الخارجية مغطاة بزجاج أزرق يعطيه رونقه، يتخذ طابعًا رومانسيًّا مع الإيحاء بالكبرياء والندية والحنين، يدل على أن مصمّمه امرأة عاشقة، صممته بعد علاقة حميمية ناجحة، وممتعة.

ولجتُ مدخله، منقوشٌ بفنّ وأناقة، عبارة عن تحفة معمارية فريدة، من عصرِ نهضةٍ لم يأت بعد! لم أستقل المصعد، صعدت الدرج كما عاهدتُ نفسي، كنوع سهل من ممارسة الرياضة، التي يحرمني عملي من أدائها بصفة مستمرة، عندما وصلت لباب الجهة التي أسعى إليها، وقفت ألتقط أنفاسي، وأضع خطة وبديلها؛ للتعامل مع هؤلاء الموظفين الماكرين المهرة، دخلت وقلبي يدعو الله أن يوفقني في أداء مهمتي، ويعينني على تحقيق مطالبهم التعجيزية، والانتصار على روتينهم القاتل.

من خلف نظارته التي يخفضها قليلًا على أنفه العريض، رمقني بخُبث، مسح بيده اليسرى صلعته التي تتناثر عليها عدة شعيرات قصيرة، تشهدُ على كثافة شعره يوما ما، ويده اليمنى مازالت مستمرة في كتابة المسوّدة أمامه، تجاهلني كذرة غبار عالقة في الهواء مرّت! صبّحته بالخير، رد بفتور، وبدون مبالاة قال:

- أُؤمر؟

لم أستبشر خيرًا، ولم أفقد روح التفائل والأمل التي جئت بها، أجبته مبتسمًا:

- أريد تمام تصدير للشهادة رقم ١٠٤٦

تنهّد بضجر، وقال بانفعال كأني أقوم باستفزازه:

- انتظر قليلًا.

- إنه تمام تصدير لن يأخذ من وقتك دقائق!

فرّ القلمُ من بين أصابعه، خلع نظارته وقذفها أمامه بنفاذ صبر وانفعال زائد، وقال:

- الشهادة ليست عندي.

- وأين هي؟!

تجاهلني ولم يجب. نصحني الموظف القابع خلف المكتب في مقابلِه: بأن عليّ الانتظار كما أُخبرت، التفتُّ إليه فوجدتُه يومئ لي برأسه، فهمت مغزاه فسكتُّ، خرجت من عندهما بعدما فهمت الخطة التي تدبّر لي خفاءً.

تصنّعت الغباء وعدت وتظاهرت أني لا أفقه شيئًا، وحاولت معه مرة أخرى، فظل يماطل حتى جاء وقت الظهر، سبقني بإعلان رغبته في الصلاة مع اقتراب خطوة وحيدة منه، لم أستطع الاعتراض، وسبقته للمصلى.

بعد تمام الصلاة لم يتزحزح من مكانه، ظل يتأمل سقف المصلى الأبيض، لم يزغ بصره عنه لحظة إلا لمراقبة بعض المارة أمامه، تجاهلته؛ كي لا تزيد نظراتي امتعاضَه، ولا يظن أني أتملّقه.

غادرت المصلى، تخيرت زائرًا تبدو عليه سيمات الخبرة والكفاءة، ألتمس عنده الحل لمشكلتي، أجابني باقتضاب:

- أنهِها معه بالحب!

- بالحب؟!

فرك إبهامه بالسبابة والوسطي، ثم قال:

- أكيد!

أعي ذلك من البداية، فتلك النظرية معمول بها هنا، وقديمة قدم شعيرات رأسه المتبقية، لكن لم أكن أظن أن تعطيل الإجراءات نظرية معمول بها أيضًا؛ حتى تتحقق الأولى واقعيًّا!

قعد على كرسي مكتبه يراقبني خلسةً، توجهت إليه فورًا وفي يدي ورقة من فئة العشرين، وهي أعلى من سعره المتعارف عليه، حسب ما تنص النظرية.

قلت له والورقة مازالت في يدي، متعمدًا إظهارها له:

- يجب الانتهاء منه؛ كي لا يغضب عليَّ الرئيس.

بادلني نظرات الاضطراب والقلق، قائلًا:

- الرئيس من؟!

- أقصد مديري!

- هذه الشهادة ليست عندي، وعليها غرامة.

مددتُ يدي بالورقة المالية، وأنا أحثُّه على إيجاد حلّ ما؟ لم تصدر منه أي بادرة اهتمام، لكنه قال:

- انتظر خارجا، والأستاذ فرج سيتفق معك.

وأشار بيده لزميله.

زال التوتر والترقب الذي ينتابني في مثل تلك اللحظات، عادت إليّ الروح التي استقبلتُ بها الصباح.

عند الباب جاء الفرج للتفاوض، لاعبًا دور الصديق الناصح، قال:

- أعطه مائة، وسينهيها لك.

قلت باستغراب:

- سيعتمد الطلب؟!

- سيعتمده.

لكن لا أقدر على دفع أكثر من خمسين، الشركة لا تصرف المال فيما يخص النظرية، توقعتُ قبل أن أخبره بذلك رفضه العرض أو المساوة قليلًا، لكنه وافق على الفور، وذهب للتبشير، وكُلّلتْ مهمته بالنجاح.

زاد ما أشعر به من سعادة وغبطة، ففوق مكالمة حبيبتي المسائية، ورسالة الصباح، أنجزت مهمتي، وتجنّبت تأنيب مديري الذي لا يرحم أحدًا، انطلقت عائدًا أدراجي.

مازلت أسمع أنغام الكون بعدما غيّرَ اللحنَ والكلماتِ، بلحنٍ وكلماتٍ أكثر شجنًا وعذوبةً، تلمّست شاشة الهاتف، لم يصلني جديد، فراسلتُها بدوري، أجابتْني سريعًا، فهاتفتها، ظللت أتحدث معها حتى ولجتُ مقر عملي، وبعد ثلاثين دقيقةً

ممتعةً اضطررت لإنهاء المكالمة، مع وعدٍ بإتمامها مساءً. تبًّا! عفوًا، أقصد الحمد لله، أشعر بحالة رائعة.

عند المساء أرسلت لها عدة رسائل لم تعقّب عليها، بدأ الامتعاض يتسرب داخلي، حاولت الاتصال بها ولم تجب، شعرت باليأس، جلست وحيدًا بعدما هجرتْني حالة الصباح، تاركةً لي العبوس والضجر، وبدأ عقلي يتفوّه بالتخاريف:

- موظف استغلالي، من أجل خمسين جنيهًا سوف يقتسمها مع زميله؛ أتم الطلب دون أن يلتفت إلى المستندات المقدّمة! وفوّت على الدولة تحصيل خمسمائة جنيه.

(٧)

يوم آخر

وظيفة مندوبِ نقلٍ محفوفة بالمخاطر دائمًا بالنسبة لي، خاصة في ميناء "العين السخنة". برد قارس يخترق العظم في الشتاء، وحر شديد مصحوب بعواصف ترابية في الصيف، تجعل الأجواء ضبابية فتتعذر الرؤية من خلالها، وساعات طويلة من الإرهاق الذهني، والضغط العصبي، بالإضافة للإجهاد البدني. أشدها على الدوام، ويكاد يجهز عليّ السهر حتى الفجر كل يوم تقريبًا.

ألاحظ الجميع وأنا أعمل باستمرار، يبدو أني الوحيد الذي أتذمّر من هذه الصعوبات وفق وجهة نظري، على الرغم من ذلك كنت قلقًا منها على الدوام، مما تسبب في زيادة حدتها، وما جعلني أتحملها أن أحداث اليوم لا تشبه الآخر، فاليوم الذي يهلّ عليَّ يأتي بأحداث جديدة، تبهرني في المجمل بتحدياتها الخاصة التي أجتهد في حلها، وتصبح فيما بعد ذكرى جميلة لمغامرة متعبة.

رن الهاتف داخل شقتي بحيّ الصباح بالسويس، لم يمض على نومي ثلاث ساعات، لا يسعني إغلاقه والنوم، يتوجب عليَّ الاستجابة؛ حتى لا يتعطل سير العمل، ففي النهاية عملنا في غاية الأهمية، فنحن ننوب عن رجال الأعمال في نقل بضائعهم الواردة والصادرة، وأي تأخير ولو عدة دقائق فقط ربما يتسبب في خسائر فادحة، أو قد يفوّت عليهم جني أرباح وفيرة، يعدونها من جملة الخسارة أيضًا، هكذا أتذمر من تعب العمل، وقله النوم، وأمتلك الحس بالمسؤولية تجاهه، وأشعر بالفخر وأنا أؤديه، وأعتبر نفسي من المشاركين في بناء اقتصاد بلدي.

على الهاتف شعبان الحصري، يتحدث بلهجته الريفية التي تثير الضحك والسخرية التي يتقبلها مني بصدر رحب وهو سائق إحدى الشاحنات، تنقل عبوات زيت الطعام داخل حاوية متجهة إلى العراق، من أحد مصانع العاشر من رمضان. منذ زمن اعتدت على كثرة طرح السائقين الأسئلة، خاصة في وقت متأخر من الليل، أو في البكور، أجبته بهدوء، بعدما حصل على مراده أغلق الخط، فعدت للنوم.

عند التاسعة أيقظني رنين الهاتف مرة أخرى، الاتصال هذه المرة وارد من زميلي القابع في الميناء، بادرني بقوله دون مقدمات:

- أقفال الحاويات مفقودة.

من هول هذه الجملة قفزت من على سريري واقفًا، اعتراني ذهول أربكني، وشتت ذهني!

- الأقفال فُقدت.

- نعم!

- كيف؟!

- لا أعلم، بحثت عنها ولم أجدها.

- ابحث مرة أخرى، هل فُقدت كلها؟

- ثلاثة فقط.

- هل سرقت؟

- يبدو لي ذلك.

- حاول أن تتصرف، أنا قادم.

- حسنًا.

أغلقت الخط وأنا ما زلت مشتت الذهن، أتساءل ماذا أفعل؟ تكمن خطورة هذه الأقفال أن شركة الملاحة المنوط بها شحن الزيت، تسلم الأقفال بعدد الحاويات بعد التأكد منها، وتعطي بدل فاقد بثمن مبالغ فيه هو ٢٨ دولارًا للواحد، معنى

ذلك أننا أمام أمرين لا ثالث لهما: إما تدبير الأقفال بأي طريقة، أو وقوع خسائر كبيرة لا نستطيع تحملها.

عندما وصلت موقف أجرة المثلث، وجدت السيارة المتجهة إلى العين السخنة "الميناء" ينقصها راكبان، من حسن حظي اكتملتْ فور وصولي فانطلقت بنا، بعد حوالي أكثر من نصف ساعة وصلنا، شاهدت خلالها مصانع عتاقة، ميناء الأدبية، والجبال المطلة على البحر الأحمر التي تقع يمين الطريق، أنهيت مشاهدتي بمنظر القرى السياحية المتراصة بجوار بعضها يسار الطريق، وتطل على البحر مباشرة، ورغم أني أشاهد هذه المعالم كل يوم لكني لم أملّ منها قط.

دخلنا الميناء من البوابة الرئيسية المجاورة للبنك، ثم اتجهنا إلى ساحة الشاحنات المجاورة لرصيف الشحن، حيث يرقد مكتبي الذي أباشر منه العمل في الهواء الطلق.

أجريت بعض الاتصالات فور وصولي، وتأكدّي من فقد الأقفال؛ في محاولة لتدارك الأزمة، أهداني صديق لي قفلين كان يحتفظ بهما لمثل هذه الظروف، لا أعلم كيف استطاع الحصول عليهما! بمقابل بالطبع! وفي مثل هذه الظرف ترتفع قيمته، لم يتبق غير قفل واحد يجب تدبيره بأقصى سرعة قبل وصول الشاحنات، استطاع زميلي في العمل بعد وقت قصير تدبيره وإلقاءه في يدي، انتبهت هذه اللحظة أني لم أنهرْه على إهماله الجسيم، وتقاعسه. حمدت الله على حل المشكلة بهذا الوقت القياسي، ولتبق مسألة المقابل لوقت آخر.

سلمني زميلي الأوراق التي بحوزته لحلول وقت راحته، ثم غادر الميناء عائدًا إلى السويس.

الساعات الأولى دائما تتشابه مهما اختلف اليوم، وواجهت فيه صعوبات جمة، عند الواحدة ظهرًا يبدأ العمل الحقيقي يدق الأبواب، على أقل تقدير لن أنتهي منه قبل الثانية صباحًا، توافدت الشاحنات على الساحة متفرقة، وأنا منهمك في تحضير إجراءات دخولها، وتفريغ حمولتها داخل رصيف الشحن.

تفاجأت بشعبان الحصري وهو يمد يده لي بكوب شاي، وابتسامة خالصة، قائلًا كما اعتاد أن يناديني:

- تفضل يا باشا.

قلت له وأنا أتناول كوب الشاي منه:

- أهلا عم شعبان، متى وصلت؟

- حالًا.

نبهتني أول رشفة شاي أني لم أتناول شيئا بفمي منذ أمس، من حسن حظي أن المطعم ما زال يقدم وجبة الإفطار، فاشتريت سندويتشين من الفول، أكلتهما بنهم، رغم أني لا أشتهي الفول أبدًا، لكن حيثيات الاختيار تبدو مقنعة بالنسبة لي؛ فهو سيُطْبِق على معدتي حتى المساء فلا أحس بالجوع سريعًا، فأُقلل عدد

الوجبات؛ لأوفر الميزانية، بغض النظر عن أعراضه الجانبية، ومنها: التحرك بجسد ثقيل طيلة اليوم، وبطء في التفكير!

بعد فراغي من الإفطار، توجّهت إلى مكتبي مارًا بجوار ساحة الشاحنات، بالقرب من مدخل الحيّز الجمركي، حاولتْ شاحنة تجاوز أخرى، والعبور للمدخل الذي يتسع لواحدة فقط، فكسرتْ مرآة الشاحنة الأخرى، فنشبت مشاجرة حادة بين السائقين، وتدافع السائقون والمندوبون في محاولة للفض فيما شجر بينهما، تعصب المندوبون الذين تتبعهم الشاحنتان لسائقيهما، تبادلت الألسنة السباب والشتائم بشتى أنواعها، أراقب المشهد من بعيد، فلم أجد مكانًا لي وسط الزحام الكثيف، بعد قليل دخلت الشاحنتان الجمرك، والمشاجرة ما زالت مستمرة! هنا ازداد حنقي عليهما، حاول شعبان المساعدة في فض النزاع بقوة، فقوبل بعنف، اخترقت الزحام بصعوبة بالغة للدفاع عن سائقي، هكذا أصبحت طرفًا في النزاع الذي لم يفلح في فضه إلا شرطة الميناء، وانتهى الأمر وديّا وتم التصالح.

اليوم مزدحم بكثرة المهام، بدأتها بتسجيل الأوراق في خدمة العملاء. الصفوف أمام الشبابيك مزدحمة رغم كثرتها، مرت ساعة كاملة وأنا متصلب في الصف الذي يكاد يتحرك ببطء شديد، وصلت أخيرًا! هكذا نطقتُها للموظف الأنف، فأغلق الشباك في وجهي قائلا دون مبالاة:

- وقت الراحة.

لم يكن ينقصني غير هذا! كم أكره رؤية هذا الموظف يجلس أمامي خلف الشباك، يشعرني دائما أنه يمقُتني، لا أرتاح لنظراته. اضطررت للانتظار حتى انتهاء وقت الراحة، وأنهيت التسجيل.

عليَّ الآن استخراج استمارة من مبنى الجمرك القريب، أحب إنهاء هذه المهمة بنفسي؛ لأنه في وسعي التروّض قليلًا بحديقة المبنى المليئة بالورود المختلفة وعبيرها؛ لتخفيف العبء والضغط العصبي عني، واستنشاق الهواء النقي القادم من البحر مباشرة.

خلال سيري أخرجت المال الذي بحوزتي، ثم أخذت ورقة مالية بعينها ووضعتها في جيب خاص، دخلت غرفة الموظف المسؤول، وجدته متفرغًا، ومزاجه معتدلًا! وهذا مبشر خير، طلبت منه استخراج الاستمارة، ثم أدخلت يدي في جيبي لإخراج الورقة المالية فبدأ يستجيب، أخذتُها منه بعد وضع إمضائه عليها، ووضعت الورقة المالية في يده دون أن يشعر أحد، وأنا أشكره على فضله، ومساعدتي.

بينما أستدير للخروج، دخل شاب تبدو عليه علامات الفطرة والسذاجة، قال بصوت جهوري لا يتفق مع هيئته، وهو يمد يده بالورقة المالية علنًا:

- أريد استمارة؟

وضع الموظف يده على جبينه، وطأطأ رأسه خزيًا، فكرر الشاب قولته، دفعتُه برفق خارج الغرفة، شرحت له طبيعة العمل، شعر بالأسف من نفسه؛ لأنه لم يفهم ذلك من البداية، وربما يُطرد من أول يوم له في الميناء، وهذه أمر حتمي! لأن خطأً كهذا لا يُغتفر في عملنا هذا؛ لأنه ينم عن سوء اختياره.

عند بوابة الحيّز الجمركي التي تفصل رصيف الشحن والتخزين عن باقي الميناء، أشهرتُ بطاقة الهوية، وتصريح الدخول السنوي، فسمحوا لي بالدخول بعد تفتيش رمزي؛ لأبحث عن حاوية واردة.

لا نعلم مكان الحاوية! قالها الموظف في وجهي دون أدني إحساس منه بالمسؤولية، ويعني أن عليّ البحث عنها بنفسي سيرًا على الأقدام، وسط مئات الحاويات المتراكمة، كنت محظوظًا! فبعد ساعة واحدة عثرت على الحاوية المفقودة، دفعت للرافعة ورقة مالية كبيرة؛ كي تنقلها على سطح الشاحنة المستعدة لنقلها إلى القاهرة، وتسليمها لصاحبها.

في طريق خروجي استوقفني ثلاثة من أمناء الشرطة متجمعين حول أنفسهم، يتحدثون عن الحاوية التي عُثر بداخلها على كمية كبيرة من الأقراص المخدرة، والحبة الزرقاء، قال أحدهم بشيء من الفخر:

- لقد أخذت شريطين من الحبة الزرقاء.

بادله الآخران نظرات اتهام بوجوه عابسة؛ لأنه لم يورثهم. رفض اقتسام الشريطين، قائلًا:

– إنها هناك، خذوا منها ما تريدون قبل تحريزها.

تابعت طريقي وعلى وجهي ابتسامة ساخرة، فور وصولي رفع أحمد عبدالحفيظ الموظف في الميناء أذان العصر، مصلانا عبارة عن سجاجيد مفروشة على أرضيه الممر الطويل داخل مبنى تتراصّ غرفُه على كلا الجانبين، تستأجرها شركات الملاحة العالمية لاستخدامها مقارًا لموظفيها، توضأت ثم لحقت الإمام بعد تكبيرة الركعة الأولى، بعد إتمام الصلاة كان التعب يستبدّ بي، استلقيت على ظهري لأحظى ببعض الراحة، لم يمهلني العمل إلا دقائق معدودة، تلقيت اتصالًا هاتفيًّا جعلني أسرع الخُطى، أثناء خروجي من المبنى التقيت بصديقي وزميلي في السكن، تجاوزنا بعضنا دون أن يلتفت أيٌّ منا للآخر، كأننا لا نعرف بعضنا، وهذا أمر شائع في الميناء قد اعتدنا عليه، فوسط كل هذه الضغوطات لا وقت إضافيًّا لتبادل المجاملات الاجتماعية، أو إلقاء التّحايا، خاصة عند سعينا لإنهاء الإجراءات المتعثرة، يكون الحديث وقت الفراغ فقط.

لم يتبق أمامي الكثير لأنهيه، بقيت بعض الإجراءات البسيطة، سرعان ما أنهيتها، جلبت كوب شاي، جلست أرشفُه بتلذّذ على مقعد مكتبي، منتظرًا نتيجة عملي تتم، وهذه مهمة إدارة الميناء الإماراتية، شرط عدم ارتكاب السائقين أي أخطاء تعطّل سير العمل.

تم كل شيء على مهل، على خير ما يرام؛ مما أفسح المجال لنيل بعض الراحة والمرح والهرج مع الأصدقاء المتفرغين أيضًا قبل بدء الجولة الثانية من العمل، حيث تكون دائمًا أكثر إرهاقًا، وأشد وطأةً من الأولى رغم أنها أخف حدّة؛ مما يوفر علينا كثيرًا من الجهد.

الشمس الآن تختبئ خلف جبال العين السخنة، فتكسبها لون احتراقها، في هذا الوقت: إما أن أكون على وشك إتمام الإجراءات ثم المغادرة، وإما أنني أستعد لليلة طويلة تنتهي في الغالب قرب الثانية أو الثالثة صباحًا.

ساعات من العمل المضنى، وكثير من الإجراءات نفسها حتى حان منتصف الليل، خفّت الحركة في الميناء كله، لم يبق أمامي إلا القليل لأنجزه ثم أغادر، أكملت كل شيء عند الواحدة والنصف صباحًا، لا توجد سيارة تنتظرني؛ لذلك عليَّ قطع المسافة الطويلة الممتدة من المكتب إلى الطريق خارج الميناء سيرًا على الأقدام، إلا إذا حالفني الحظ واستقلّيت إحدى الشاحنات التي تغادر الميناء على مدار اليوم باستمرار، وتَنْدُر وقت خروجي!

بينما أتجاوز ساحة الشاحنات رأيت المنظر المعتاد، ينام بعض السائقين داخل شاحناتهم على سريرها الضيق، وينقسم البعض الآخر لمجموعات صغيرة متفرقة، تفترش الأرض لتناول الطعام، أو التسامر أثناء شرب الشاي.

استوقفني منظر سائق مسنٍّ مستلقٍ على فراش مهترئٍ قذرٍ بجوار شاحنته، يفتح عينيه بجهد، من الوهلة الأولى تيقنتُ أن التعب والإجهاد قد تمكّن منه، أحسست بالرأفة عليه؛ رحمة بحاله، خجلتُ من نفسي كثيرًا؛ لأنني طوال اليوم حانق على سائقي الشاحنات، وألقي عليهم اللوم على كل شيء، تساءلت وأنا أعلم الإجابة: ما الذي يجبره على تحمل كل هذه المشاق؟

بلغت الطريق بواسطة إحدى الشاحنات، بعدما أنزلتني سلكتْ الاتجاه المعاكس، قاصدةً طريق العين السخنة الذي يشقّ الجبال متجهًا إلى القاهرة، بقيتُ وحدي وسط الضوء الساطع الذي ينبعث من مصابيح بوابة الميناء خلفي. صمتٌ مطبقٌ. أنتظر قدوم من يُقلّني إلى السويس، بعد نصف ساعة توقفت أمامي سيارة ميكروباص دون أن أشير لها؛ بسبب شدة إجهادي، وعلمي أن السائق سيقف من تلقاء نفسه، يوجد بها راكبان غيري، أحدهما يجلس بجوار السائق، والآخر بالخلف، يغطّ الاثنان في نوم عميق.

تجربتي المريرة مع سائقي الميكروباص، وفي هذا الوقت المتأخر بالتحديد؛ جعلتني لا أخاطر بحياتي، وأطمئنُّ له وأنام، فالكل هذه الساعة يكون الإرهاق قد بلغ به مبلغًا خطيرًا؛ يصعب معه الحفاظ على كامل انتباهه، وعلى مقلة عينيه مفتوحة.

أتذكر تلك المرة التي ركبت فيها مع سائق نام لمدة دقيقة كاملة وهو يقود السيارة بسرعة ثمانين كيلو، ومما يثير الضحك أني ظللت أراقبه، ولم أحاول إيقاظه!

وصلت عند باب العمارة خائر القوى، شبه نائم، صعدت درجات السلم التي بدت لي لا نهاية لها، دخلت الشقة فوجدت زميلي مستيقظًا يشاهد التلفاز. بينما أستحم؛ لأتخلص من الأتربة والحرارة الزائدة، حضّر لنا العشاء، أكلنا حتى التخمة، ثم رميت جسدي المهدود على السرير لأنام عدة ساعات، وأرتاح قليلًا؛ استعدادًا ليوم آخر.

(٨)

الذكرى الأولى

التقيت ولاء في لحظة فارقة من حياتي، عندما أتت مع والدها من الإسماعيلية لزيارتنا، لم أرها منذ زمن بعيد، كنت ضائعاً، أتخبط في ظلمة الحياة، فكأنها نقطة نور هداني لأخرج من الظلمة، من ضياع الفشل إلى دروب الطموح، لم أكن أعلم ما ينقصني إلا بعد لقائنا هذا، كنت أعيش خارج هامش الحياة، خلف جدرانها، معتقداً أنني داخلها أستمتع بها، كنت أظن أني كامل حتى عرفتها، فأدركت عيوبي، وكم أنا ناقص.

فاجأني قلبها الذي ينبض بالحياة الخالدة، ويغمرني بالحنين المفعم بالغرام، بابتسامتها المبهجة التي تمنحني إياها، بوجه غضٍ يمنح الأمل.

توهج سواد عينيها ألقى عليّ تعويذة جعلتني أسبح في لذة حبها، ونعيمه.

بكلمة منها أذابت الفروق بيننا:

- إزيك؟

- بخير يا ولاء.

لم تمهلني وقتاً لأسأل عن أحوالها، اقتربت مني كثيراً، سواد عينيها ما زال يتوهج، فارتجف فؤادي بشدة، وقالت:

- لا أتذكرك!

- التقيتكِ منذ أعوام، كنتِ طفلة.

ظلت صامتة، تداعب شفتيها السفلى بأناملها الناعمة، وتدندن بكلمة غير مفهومة، "اممم" ثم قالت:

- لا أتذكر!

بدت لي طفلة مدللة، لا فتاة في الثامنة عشر، لهونا كطفلين معاً رغم أني أكبرها بعدة أعوام، مزجنا الكلمات بالكلمات، خلقنا شعراً لم ينظمه شاعر فذ، تبادلت عيوننا التعاويذ، غمر الغرام قلوبنا حتى امتلأ من نشوة العشق، وغمرتنا السعادة كشلال منهمر.

جريئة، جسورة، هادئة ورقيقة كقطرة ندى، حركتني من سكون الدعة إلى إثارة المغامرة، تجولنا بالسيارة في شوارع بور توفيق كعروسين، توقفنا عند بائع أيس

كريم، أكلناه باشتهاء، بعد فراغنا منه خطفت مني مفاتيح السيارة، قالت بلهجة حاسمة:

- سأقود.

- هل تعرفين القيادة؟

- لا! أنت ستعلمني.

لم أستطع مقاومة ابتسامتها البديعة، وتعويذة عينيها، جلست بجوارها أشرح لها تعليمات السلامة أولاً، رفعت يدها نحوي معترضة، وقالت بنفس اللهجة الحاسمة:

- كيف أحرك السيارة؟

طرق بور توفيق هادئة كعادتها منذ نشأتها، قادت كأنها تلعب لعبة فيديو، لكنها لم تخطئ! ظننت أنها خدعتني، سألتها هل قدتِ من قبل؟ أقسمت بعيون صادقة أنها لم تقد سيارة قط! مفاجأة أخرى تثير الدهشة والإعجاب.

لم نتشابه إلا في عشق المغامرة، الطباع، الثقافة، والتفكير مختلف تماماً، رغم ذلك انجذب كلٌ منا للآخر، كوّنا ثنائيّاً جميل، فأصبح اختلافنا سبب اتفاقنا.

عدنا إلى البيت بعد يوم حافل، تحملنا الريح على جناحها، والسعادة على كفيها، يعمنا الحنين، وآمال العيون الطامحة إلى الغرام، مع كل دقيقة تمر يزداد مفعول

التعويذة سحراً، لم يخفَ على أحد أنه بدأ يتكون داخل قلوبنا شيء، أشواقه تعمي أبصارنا، لم ينهونا، شجعونا ضمنيّاً، ودعمونا في الخفاء.

تجمعت العائلة كلها للسهر فوق العشب بحديقة المنزل، لم نتجمع منذ عدة سنوات، الكل مشتاق للآخر، تتعالى الضحكات، تحوم حولنا مشاعل البهجة، ونسمات القناة اللطيفة، ناجيت ولاء في جانب العائلة الأيمن، حدثتني عن نفسها بعفوية، فطاب لي الإنصات لها، صمتت قليلاً، حثثتها على الحديث، فنظرت إليّ كأنها تتذكر شيئاً، بعيون طفولية بريئة قالت:

- لا أعرف كيف أطهو.

قاومت ابتسامتي، وقلت أقصد نفسي:

- ماذا ستفعلين إذا تزوجتِ؟

- سأتزوج رجلاً تفكيره مثل تفكيري، هو يطبخ، وأنا أغسل الأطباق.

لم أتمالك نفسي، ضحكت حتى دمعت عيناي، ثم قلت:

- وإن لم تجديه؟

وضعت أنملها على شفتها السفلى، ثم قالت:

- اممم لا أعلم!

- أنا طاهٍ محترف.

علت ابتسامة خجلى محياها، كان هذا بمثابة إعلان حبي لها، وإيذاناً بمولده، غمرتنا بهجة تزينت القناة بها، فرغبت بالجلوس على ضفافها، ليس ذلك ممكناً في ظل اشتعال ثورة يناير، فقد منع الجيش التجول على الضفاف مباشرة، وأغلق عدة حدائق تطل عليها؛ لدواعٍ أمنية. لم تعترف هي بالحواجز، أخبرتني أنها مشكلتي أنا.

لحسن الحظ صديقي ملازم أول يخدم بمبني الإرشاد ببور توفيق المطل على خليج السويس عند مدخل القناة، وهو أنسب مكان تتأملها منه وهي تعانق البحر، وتذوب ضفافهما معاً، وتشاهد الشمس وهي تنشر نورها الذهبي عليهما، أمّن صديقي دخولنا بصفتي قريباً جئت لزيارته، دخول ولاء خلسة هو أخطر مما نتوقع، لهونا خلف المبنى، حول نصب بمدخل القناة يحتاج لترميم، وقفنا على صخور الضفة المشتركة، بلت المياه أقدامنا، وحواشي ملابسنا، السفن تحيينا، وتعبر في هدوء حتى لا نكشف.

أرادت السباحة، جو فبراير في السويس بارد لا يدفئ، فرفضت طلبها بتودد لم يغضبها، ظللنا نلهو بمرح، بعدها خرجنا خلسة كما دخلنا دون أن نُكتشف، أكملنا مسيرنا نتجول بين البيوت الخشبية التي بنيت أيام فرديناد ديليسبس، ومجد الإنجليز وتحكمهم في الأرض، ركضنا على كورنيش السويس، التقطنا صوراً تذكارية عند نصب الجندي المجهول، أمام حديقة مبارك، وأخرى والخليج خلفنا.

يوم حافل لم تنتهِ مغامراته بعد، يصلح ليكون إحدى قصص ألف ليلة وليلة، عندما رجعنا إلى البيت أخبرتني أنها تريد أن تأكل من طهي يدي.

لا أعرف كيف أطهو! لكني كرهت أن أخيب ظنها، بحثت عن وصفة مناسبة على الإنترنت، وقع اختياري على "المقلوبة"، نفذت الوصفة بحذافيرها، واستمتعت بمساعدتها لي في تجهيزها، منظرها في الأطباق والدخان يتصاعد منها شهي، يصيبك بالجوع، الأرز نيئ قليلاً، مالح، واللحم مهترئ، رغم ذلك أكلنا بنهم وبشهية مفتوحة.

غمرتنا رغبة ملحة في السهر، فبقينا نتسامر دون أن نشعر بمضي الوقت حتى داهمنا صياح الصباح.

توالت أيام عظم الحب فيها، وازدادت القلوب حنيناً، وحان موعد الرجوع، فوقفنا موقف الوداع، لا مشاعر مستعرة بلهيب الحب! ولا حنين يدفعنا للبكاء! لا وجود لألم الفراق! فقط أشواق حب مخبأة في القلوب، وحنين لم يختبر، غادروا وتعلونا ابتسامة مبهمة ظهرت ليبدو الكل سعيداً.

لم أذق طعم النوم هذه الليلة، ظللت حائراً طوال الليل، لا أستطيع التحدث معها، فوالدها يمنعها من امتلاك هاتف، واستحييت أن أتصل به لأطمئن عليها.

بعد الغياب اختبرت الحنين، شعرت بالأشواق الملتهبة، بألم الفراق، القلب يرتجف يريد حبيبته الغائبة، فيه حريق، حنين، وغرام يعذبني، عيون مشتاقة لمن تعشق، وعقل لا يكف عن التفكير فيها ولا يهدأ.

تشابهت الأيام، مضت ببطء يعييني حتى جاءت اللحظة المواتية، سارة ابنة عمي المقيم معنا ببور توفيق، طالبة بجامعة قناة السويس، تقيم هناك أثناء الدراسة، تجاهلت نظراتها المستغرقة لي، وقلت:

- إذا التقيتِ ولاء أخبريها أني أسأل عنها.

- لن نلتقي، سأنشغل بالدراسة.

- حاولي! فقد اشتقت إليها.

- قلت لك أنا مشغولة!

أعطتني ظهرها، ولت مبتعدة دون استجابة لنداءاتي المستغيثة، لحقت بها دون وعى، ألححت عليها حتى وافقت على مضض، فعاودت الآمال تحلق آمنة في سمائي من جديد.

اتصلت سارة بعد طول انتظار، حدثتني عن جمال وهدوء الإسماعيلية، لم تخبرني شيئاً عما كلفتها به! ماطلت بالكلمات بغير جديد، ضاق صبري، فقلت مقاطعاً:

- هل قابلتِ ولاء؟

- لا، كنت مشغولة ولم أستطع زيارتهم.

- ألم تخبريها بشيء؟

- ألا تفهم؟ لم نلتقِ!

أغلقتُ الهاتف دون مبالاة، ذهبت إلى غرفتي، واريت حنيني بها من العيون، وأسلمت نفسي له.

جو الإسماعيلية بارد قليلاً، رغم أن الصباح مشمس اليوم، استقبلتني ولاء بوجه واجم، لا يليق بالحنين المستعر داخلي وبأشواق الغرام المفعمة باللهفة، لاحظتُ جمودها من النظرة الأولى، وقعت عليّ كفاجعة، جلسنا على مقاعد غمرتني بالسقم، وضعت زوجة عمي أمامنا طبق فاكهة طازجة ليس لها رائحة ولا أحد يشتهيها، تخلل مضي الوقت سعادة كاذبة، وابتسامات مصطنعة، وشوق ملفق، تخفي الوجوه شيئاً ما وراء جمودها واستقبالها الرسمي لي كضيف، تركتنا ولاء وأغلقت عليها باب غرفتها، فتسرب إليّ إحساس بالغربة، أردت الهرب من هذه الشعائر الكئيبة، حين هممت بالمغادرة وجدتها بجوار المودعين، تبادرني بنظرة متشككة بشيء غامض، بريق عينيها منطفئ، مظلم لا تبدي ولا تدل على شيء، تأملت ملامحي لمرة أخيرة، لقد اتخذت قرارها مسبقاً لا لقاء بعد اليوم.

حاولت بصعوبة إخفاء مشاعر اللهفة والحنين المستعرة داخلي، هبطت درجات السلم أبتعد عنهم، لا أعلم هل استطعت إخفاء ما بدا مني أم لا!

خبَّأتْ ولاء حبها لي بمكان مجهول، لم تعد تلقي تعاويذ الحب عليّ، أصبحت منبوذاً فجأة لذنب لا أعلمه، وربما لم أقترفه، حرمت عليّ رحيق حبها، وطردتني من جنة قلبها، مع نصيحة بعدم الرجوع، ووعيد إذا فعلت.

القلب تحرقه عواطفه الجياشة، وعيوني مؤرقة وسط ليل مضطرب، وسماء قلقة مظلمة لا نجوم فيها، تائه وسط المدينة العريقة، أخذتني قدمي إلى سكن سارة، لم يكن مسموحاً باستقبال غرباء، فتجولنا في المدينة، لم تفارقها ابتسامة سمجه استفزتني، فلا أجد مبرراً لإبداء أي مظاهر سعادة، الأجواء باردة توقظ الشجن والحنين، تعلن عن الغروب، قادتني لمقهى لم أشعر بالارتياح فيه، كررت عليها تساؤلاتي ومخاوفي، هل قابلتِ ولاء؟ هل تحدثتِ معها عني؟ وماذا أخبرتكِ؟ ردودها غامضة، تزيد استفساراتي وحيرتي، أشعر أنها تخفى شيئاً هي الأخري، توسلت لها كي تخبرني فأنكرت ذلك بشدة.

قالت مغيره الحديث، بسعادة مبالغ فيها:

- ستأتي ولاء بعد قليل.

- أنتِ متأكدة؟

- نعم كنت معها البارحة، وتواعدنا على اللقاء اليوم.

- هل تحدثتم عني؟

- لا.

- ولا كلمة!

- ولا كلمة واحدة.

حرك مجيئها المفاجئ النسمات الساكنة، جلست معنا بروح غائبة، جعل عبوس وجهها الأجواء مفعمة بالريبة، أصبحت ابتسامات سارة لي أكثر وداً، وتوحي بالحميمية، نظرات ولاء لي معبأة بالحنق، ولسارة بالغضب، لم أجترئ على سؤالها عن السبب، راقبتها في صمت، اجتهدت لمعرفة ما تكنه من مشاعر حقيقية، لكن عيونها بقيت مظلمة لا تظهر شيئاً وتشي بالغموض، ولا تظهر براءتها كما كانت في سابق عهدها معي، اختلطت نظراتها بين ضيق وخوف لم يخالجهم حنين، فتولدت هذه المشاعر داخلي، وحدها سارة من حافظت على هدوئها، وسط أجواء مشحونة بغضب دفين، وانفعال زائد.

أين اختفى توهج الحب في عينيها؟!

تتحاشي النظر في عيني علناً، طأطأت رأسها، أبعدت عيونها النافرة مني بعيداً، لاحظتُ توترها، فسألت نفسي أي شيء استجدّ جعلها تظهر الجفاء بعدما نبض قلبها حباً وأبداه؟

لم أشعر بمضي الدقائق رغم الوجوم، والحزن السائد، خرجنا من المقهى، تجولنا قليلاً في شارع محمد على، سرنا متجاورين بهدوء حذر وسارة بيننا، لم تتفوه ولاء بكلمة منذ خرجنا، فحاولت استدراجها للحديث لتقليل التوتر بيننا، فأبت، تدخلت سارة لمساعدتي بإخلاص كي نستمتع بوقتنا، تحدثت معي وولاء صامتة، ترقبنا بين الفينة والأخرى بنظرة حانقة، وغضب يوشك على الانفجار.

خطواتنا اللاهثة تدل على أننا نهرب من شيء ما، ربما من أنفسنا! لننزوي حيث لا يرانا الآخر.

استوقفت ولاء تاكسي، غادرت دون أن تلتفت وراءها، بقيت مع سارة أغالب حنيني، وأمنعه من الظهور، لكن هيهات! وأبى إلا الحضور، تيقنت أنها تعرف أمرًا ما تُخَبئُه عني، رغبتها بالاعتراف حتى اعترفت: "ولاء تشعر بإعجابك بها من حديثك، ونظرات عينيك، وطريقة معاملتك لها، لكنها لا تبادلك نفس هذه المشاعر، فتصرفت معك بقسوة حتى لا تعطيك أملاً كاذباً، فتطمح فيما هو أكبر."

أوصلتها إلى سكنها الجامعي، وعدت إلى بور توفيق أحمل خيبتي داخلي كأعمى يمشى على طريق غريب، وفؤادي يطفح حزناً لفقدها، لا أفكر في شيء غير ما سببتُه لها من ضيق، وخوف من جرح مشاعري، كما أخبرتني سارة.

طعم الصبر على فراقها مر، بل جحيم لا يطاق، أقف فوق أرض الأحياء وما أنا بحي، معصب العينين لا أعلم في أي أتجاه أسير، بعدما أغلق أمامي طريق الحب بابه الذي بنيت عليه كل طموحاتي، ضاقت بور توفيق بي، لم أعد أطمئن للعيش فيها وولاء هاربة بعيداً، وربما تحلم بغيري، هل سأظل صامتاً وأنا أخسرها؟ كلا سأتمسك بهذا الحب، بكل الطموحات النبيلة، سأكافح للفوز بها، لكن كيف؟ وهي التي ترفضني! هي التي تفر! هل فهمت عواطفي بطريقة خاطئة؟ هل ظنت أني مغوار أغامر بقلوب الفتيات؟ جال في خاطري جل الأفكار، توقعت كل السبل التي ربما تسلك أحدها، كي أكون على رأسها عندما تقرر أن تسلك أحدها، لنسير فيه معاً متحدين متحابين.

اتصلت بعمي مراراً، كلمته في شتى الأمور حتى شك في أمري، لم أبالِ بما يظنه، اهتممت فقط بما أحبه، لم أجرؤ على طلب محادثة ولاء رغم أني اعتدت الأمر فيما مضى.

ذات ليلة القمر فيها بدر، والسويس كلها مضاءة بالنجوم، اتصلتُ به، فأجابتني بصوتها الصافي، ارتجف فؤادي حنيناً وشوقاً إليها، سألتني عن حالي الحزين، بدا لها أني سعيد، كلماتها قليلة، جافة من المشاعر، ثم بدأت بعد ثوانٍ تتشبع بالشجن، فكدت أبكي من كثرة ما سببه لها ولي من حزن.

همت أن تخبرني بشيء غامض تراه فيّ، ووددت إخبارها أن أول مرة نظرت إلى عينيها رأيت فيها جنتي، ومن يومها وأنا أعيش في العذاب.. لولا أن عمي

أخذ الهاتف منها، وجاذبني الحديث وقلبي وفكري مع ابنته، أنهيت المكالمة معه وقد ازداد في القلب الحب، والشجن، والألم.

لم أحاول الاتصال بها مجدداً، أصبحت معلقاً بين السماء والأرض، تائه وسطهما، عاجز عن نسيان حبها، أتذكر نظراتها الحانقة لي، وكلما أذكرها تجردني من إنسانيتي، فأكره نفسي وأعنفها، أشعر أني رجل جِلْفٌ لما سببتُه لها من أذى.

لم أجد تفسيراً لنظراتها الحالمة لي، غالبت نفسي وأقنعتها أني اخطأت فهمها، ظننت أني متوهم، شككت في صحة قواي العقلية، ابتعدت عنها، لكني لم أستطع النسيان.

اتصلت بي ولاء يوماً لحظة غروب الشمس، غالبت كل حنيني وحدثتها بجفاء، حتى قالت:

- شكلك بتكلم بنات!

- أبداً! لم تجمعني علاقة مع بنت قط.

- لكنك تحب سارة! هكذا أخبرتني.

- أخبرتك سارة أنني أحبها؟!

- نعم.

اعترفت لها بحبي، أوضحت لها الحقيقة كاملة، ليتني كنت معها لأرى انشراح قلبها، وانفراج خديها عن ابتسامة جميلة أسرت فؤادي، وإشراق نور وجهها الذي غرني.

اليوم الذكرى العشرون لميلادها، والذكرى الأولى لزواجنا، لم تذكرني بهم! فأحببت أن أفاجئها باحتفال خاص بنا، طلبت من الحلواني تحضير قالب حلوي بقطع الخوخ الذي تحبه، بعد فترة دخلت عليّ ولاء تحمل القالب في يدها، بقطع الخوخ مختلطة بشرائح التفاح، الذي أحبه..

(٩)

مقهى النصر

بجوار كلية النصر فيكتوريا، يقبع المقهى، يطل بوجهه على شارع أبوقير كأسد مرابط في فترة راحة، الساعة تشارف على الواحدة صباحًا، البرد قارس، خاصة هذه الأيام من ديسمبر، فقط رجلين بجوار الحائط يحتميان من تيار الهواء المحمل بذرات مجمدة، يتسامران بصوت جَهْوَرِيٍ، يتناولان كوبين من الشاي الساخن، ورجل يجلس وحيدًا، من هيئته يبدو غريبًا، أو عابر سبيل، المقاعد الأخرى فارغة، لا يدفئها روادها المعتادون، المختبئون داخل بيوتهم من قسوة شتاء هذا العام.

بقي النُّدُلُ بالداخل، بالقرب من مركز انبعاث النار؛ لتدفئة أجسادهم، يقترب أحدهم من الجمر المعد لتدخين الشيشة بين الفينة، والأخرى؛ لتدفئة يده من الحرارة المنبعثة منه، وزميله ينظر له بتعجب كلما كرر ذلك.

قَدِمَ ثلاثة شباب حوالي الساعة الواحدة وسبع دقائق، خلفهم رجلان، أسرعا في شغل الحيز الضيق المتبقي في الداخل، فجلسوا خارجه متحسرين على ذلك.

بادرهم أحمد بالحديث مخاطبًا عمرو:

- محمد صديقي.

- قال عمرو مبتسما وبحفاوة:

- تشرفنا.

تسامر أحمد مع عمرو متناسيًا صديقه محمد؛ الذي ظل صامتًا، يتظاهر بالإنصات لحديثهم، محاولًا التغلب على موجات البرد دون جدوى، بعدما أصابه الإحباط لعدم إشراكه في حديثهم، قاطعهم:

- أنت متزوج يا عمرو؟

- لا.

- كم عمرك؟

- ثمانية وعشرون.

- ثمانية وعشرون ولم تتزوج بعد!

- لن أتزوج أبدًا وأنا مجرد بائع لعب أطفال في الشارع، إنه عمل غير مضمون، وأصبح من العسير الزواج بعد غلاء أسعار الشقق، وكذلك الإيجار.

- الرزق على الله.

قال أحمد مؤكدًا على كلامه:

- معظم الباعة الجائلين هنا متزوجون، وفاتحون بيوتًا، مثلًا: العم خالد بائع الكتب، والعم فوزي بائع الخردوات.

قال عمرو معترضًا:

- أعلم، لكن البلدية ممكن أن تهاجمك في أي وقت، تخيل لو كنتُ متزوجًا ولدي أولاد ماذا أفعل؟

أجابه أحمد ومحمد بصوت واحد:

- اتركها على الله.

هتف عمرو في حماس:

- ونعم بالله.

تجاوز الجميع هذا النقاش، جدد أحمد عرض العمل في محله بدوام كامل على عمرو، فعارض الفكرة بلطف مرة ثانية، متعللًا بأنه لا يستهويه مجال الإكسسوار.

قال محمد متفاخرًا:

- على الأقل جرب، أنا مُعَيَّنٌ معيدًا بكلية الحقوق، ومساءً أعمل مع أبي في محل الفاكهة.

- سوف أفكر.

أومأ أحمد برأسه موافقًا على كلامه، ثم سحب نَفَسَ دخانٍ من الشيشة التي أمامه، فسرى في رئتيه سريعًا، مارًّا ببثرة ورم بدأت تتشكل في حنجرته، دون أن يدرى أحد، لا يعلم أنه أثناء حديثهم توفي حوالي مائه شخص من مختلف أنحاء العالم بسبب التدخين.

دفع خليل بائع الكبدة، وولده عربته أمامه، عائدًا إلى بيته، بعدما أصلح عجلاتها، في هذه الأثناء غادر الرجلان اللذان شغلا الحيز الداخلي من المقهى، بعدما سددا الحساب، اقترح محمد عليهم الدخول للاحتماء من البرد، فاستجاب الجميع فورًا، دون مناقشة.

(١٠)

يوم صيفي حار

استيقظ حسين بعد عمر ناهز الخامسة والثلاثين...عقرب الساعة أشار إلى الثالثة ظهرًا، ظل ممدًا على فراشه دقائق دون حراك، بين اليقظة والنوم، أزال النعاس من فوقه، وجلس على حافة السرير يفرك عينيه ببطء، مشط شعره المجعد بيده، تشف أشعة الشمس من خلف الستار الرقيق البالي، المعلق على النافذة، لا تتبين ملامحه وسط هذا النور الخافت، الذي لا يظهر غير ظلال قطع الأثاث المتهالكة، المتناثرة في الغرفة، مقعد قديم مطلي باللون البني القاتم... قشرت بعض أجزائه، دولاب صغير منزوع أحد أبوابه، يكشف ما بداخله من ملابس مهترئة، وقطعة صغيرة من مرآة مهشمة، وسرير ينام عليه، وصندوق خشبي صغير ورثه عن أبيه، مغلق منذ وفاته، تعلوه أتربة عتيقة.

قام بتكاسل، كأن به ألم مبرح واتجه للنافذة، أزاح الستار جانبًا، فتسلل نور الشمس إلى الداخل متلهفًا للانغماس في الغرفة، وأضاءها، لم يزعج الضوء عينيه، ظل يحملق في الحقول الخضراء المنبسطة أمامه على مد بصره، المنتهية عند أطراف بحيرة المنزلة، تمنى لو يغرق زوجته بها! استنشق الهواء المنعش الذي يهب من ناحية البحر، أمسك طرف ثوبه الرمادي، وخرج من الغرفة قاصدًا الحمام، مازالت قطرات العرق الغزيرة عالقة على صدره، وتفوح منه رائحة عطنة، صب الماء على جسده ليجرفها، فشعر بالانتعاش، بعدما انتهى خرج ممتلئًا بحيوية لا حاجة له بها.

زوجته إنتصار تفترش أرض البيت المغطى بحصير بهت لونه، تقطع حبات البطاطس؛ أجزاء صغيرة في إناء من ألمونيوم أسودَّ قعرُهُ، لا يوجد وسط البيت غير أريكة وحيدة عليها فراش ممزق، ومنضدة صغيرة من حديد صدئ، فوقها تلفاز قديم الطراز.

تجاهلها واتكأ على الأريكة بهدوء، فتعمدت إحداث ضجة كي تلفت انتباهه، كلل مسعاها بالنجاح، نظر إليها بوجهٍ قاطب وقال:

- أنتِ هنا يا بومه؟!

- ربنا يسامحك.

- ألا تموتين لأرتاح منكِ، ومن نكدك.

توقفت عن التقطيع، ونظرت إليه بحدة، وقد اكتسى وجهُهَا بجدية مبالغ فيها، ثم قالت بنبرة حزينة وهي تشهر السكين:

- أموت وأتركك لوحدك!

- لا تشغلي بالك، سوف أدبر حالي.

- لا! لا أستطيع يا زوجي.

لم يتفوه حسين بكلمة أخرى، وأشاح بوجهه عنها، ضغط على زر تشغيل التلفاز، بعد ثوان سرى في أرجاء البيت صوت الشيخ محمد صديق المنشاوي وهو يتلو ما تيسر من سورة الإسراء: "ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلًا" لم يغير المحطة، لكنه خفَّضَ الصوت قليلًا، وتابع في صمت، إنه منشغل عقله بكساد زراعته!!

اتجهت إنتصار إلى المطبخ فور انتهائها، ممسكة الإناء بإحكام، ترسل لزوجها المستغرق في الصمت، التائه فكره، نظرات ساخرة بين الفينة والأخرى، يتجاهل بإصرار نظراتها التي تثير حنقه عليها، يتجنب إحداث مشكلة من العدم، تَسَامُحُهُ جعلها تتمادى في تصرفاتها المستفزة له، وهو غاضب عليها منذ زمن.

شعر برغبة في ضربها حتى الموت، تذكر ليلة أمس حين أشبعها ضربًا دون جدوى، ألا تتعظ! هكذا حدث نفسه، كتم غيظه، استغفر الله بصوت مسموع، فلم تفوت فرصة التعليق عليه، وقالت:

- استغفر، ذنوبك كثيرة.

تطاير الشرر من عينيه، تنهد بعمق مصحوب بالضجر، لم يحرك ساكنًا، فتمادت أكثر:

- لماذا تصمت؟!

- اخرسي وإلا سأضربك بالجزمة.

- لا تستطيع.

هنا بلغ حنقه وغيظه منتهاه، واستشاط غضبًا، حَفَّتْ نذرُ الشر به، وأحاطته إحاطة السوار بالمعصم، حتى أعمت عينيه، وخدرت عقله، قفز بخفة حيث تقف موجها إليها السباب، واللكمات الموجعة دون رأفة، صرخت، فسدد لكماته بقوة وعنف أكبر، علا صراخها، فتجمع الجيران لإدراك ما يحدث، تدخلوا لفض ما شجر بينهم، لكنه واصل سبها، وتوجيه الوعيد لها، أعلن ضرورة قتلها ليتخلص من شرها ونكدها الدائم، حاول الجيران تهدئته باستماتة، لكنه ظل في قمة غضبه.

أغلقت إنتصار باب غرفتها عليها، أخذت في جمع ملابسها لمغادرة البيت بغير رجعة، كما زعمت للنسوة اللاتي يطرقن عليها الباب، ويطلبن منها فتحه بإلحاح، ولن لا من مجيب، لا تنطق إلا بكلمات يبثها حنقها دون مبالاة، أو وعي بعاقبته، لا ردًّا عليهن؛ ولكن تنفيسًا عن غضبها.

فتحت الباب أخيرًا، فتكالب عليها النسوة لمنعها من الخروج، وبقين معها ساعة يحاولن تهدئتها، وهي تسرد عليهن سوء معاملته لها، وقسوته، وتذكر صبرها عليه، وتحملها طيلة هذه السنوات دون تذمر، وهن يحثثنها على الهدوء والتجلد، يذكرنها بأن البيوت مليئة بالمشاكل، وهي مصممة على المغادرة.

الرجال نجحوا في تهدئة ثورة حسين، بعد دقائق من تدخلهم، ثم انفضوا من حوله بعدما تأكد لهم عودة رشده إليه، وزوال غضبه عنه.

انفض جمع النساء –أيضًا– من حول إنتصار، بعدما كفَّت عن جمع ملابسها تحت سطوة إصرارهن...كفكفت دموعها، وأثناء مغادرتهن وجَّهْنَ لحسين كلمات رقيقة، تحثه على الهدوء وضبط النفس.

خلا البيت من الجميع، لم يبق فيه غيرهما، كلٌّ في غرفة منفصلة، كانا غارقين في الصمت والحزن والآلام، يتحسرون على حياتهما المؤلمة الكئيبة، يتذكران أيام زواجهما الأولى، وكم كانت سعيدة، يملأها المرح، وبرقت في عيونهما ذكرياتهما –معًا– وقضاؤهما أوقاتًا جميلة في شوارع المدينة وحدائقها، ونزواتهم فيها، وحماقاتهم الجنسية فترة الخطبة، خاصة عندما يغيب إخوتها.

يتحسرون على كل ذلك وغيره...نطق حسين بصوت مبحوح: طيش شباب. ربما سمعته زوجته، فوقفت فجأة وقَسَمَاتُ وجهها تشي بعزيمة مضاعفة على الرحيل! وقرار لا هوادة فيه بمفارقته مفارقة أبديَّةً.

جمعت كل ملابسها وحاجياتها، وغادرت دون التفوه بكلمة واحدة، أو حتى الالتفات إليه.

راقبها وهي تغادر دون ندم أو إحساس بالذنب، متمنيًا في نفسه ألا يراها مرة أخرى.

أعلن نقيق الضفادع عن حلول الظلام، وازدياد هجمات البعوض، ساد القرية صمت غريب، كباقي قرى هذه المنطقة النائية، التي لم تطأ أرضها قدم موظف حكومي منذ زمن طويل، غير محصل الكهرباء والمياه، ومخبر الشرطة الذي يهابه بعض المزارعين الصغار، والسذج، وخطوات قليلة لموظفي الضرائب.

اضطجع حسين أمام التلفاز بعد مغادرتها، ازداد سوء مزاجه، بدأ يشعر بالذنب من فعلته، وانهياله عليها بالضرب، تسرب الندم داخله رويدًا رويدًا، وسط إنكار كبريائه، لم يقتنع بالحجج الواهية التي قدمها لنفسه ليبرر تصرفه، وبينما تراوده هذه الأفكار؛ انقطعت الكهرباء، فاظلم البيت، لم تتأثر طرقات القرية كثيرًا... فهي مظلمة دومًا، بعدما أفسدت أمطار الشتاء الماضي المصابيح القليلة المتناثرة على بعض أعمدتها، ولم يصلحها أحد...هام على وجهه وسط الظلام محاولًا العثور على شمعة يستأنس بضوئها، وصل المطبخ مستدلًا بالحائط، أسقط بعض الأواني فأحدثت ضجة كبيرة...بعد جهد جهيد أخفق في بحثه، سب زوجته في نفسه، ثم عاد لموقعه الأول، غارقًا في بحر من الظلام الدامس.

بعد دقائق...عادت الكهرباء، سرى صوت تلاوة القرآن بما تيسر من سورة المائدة "ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى" هذه المرة بصوت الشيخ ماهر المعيقلي، أمسك جهاز التحكم وأخذ يغير المحطات دون ثبات على إحداها، كمن يبحث عن برنامج محدد لا يعرف على أي محطة يذاع.

ظل أرِقًا معظم الليل، يعيد سرد أحداث اليوم في ذهنه، أنهك عقله من كثرة التفكير...ماذا يفعل؟! هل يفارقها أم يراجعها؟ لم يستطع التوصل لحل يرضي كرامته، هذه المرة غير سابقاتها، فلن تعود معه بيسر إن حاول استرضاءها وإرجاعها إلى بيته، فطالما فعل ذلك من قبل، نفدت أعذاره وتبريراته، لن يصدقه أحد، أو يثق به أحد، ولن يلومهم أحد، إذًا، ماذا يفعل؟! هكذا حدث نفسه.

أشرقت الشمس بأشعة ذهبية غير مألوفة، تألقت على أكتاف المزارعين المستعدين في البكور للانطلاق إلى أعمالهم وسط الحقول، وعلى قرون الحيوانات، وأوراق النباتات المبللة بقطرات الندى.

الحشرات والطيور فزعة، تتحاشي نظرات العيون بخوف، فبدا الصباح مختلفًا، غريبًا بعض الشيء، على الرغم من الأشعة الذهبية، كأن مصيبة حدثت، أو أن شيئًا ما يدبر في الخفاء!!

وصل حسين إلى حقله...كان آخر المتأخرين، خلع ثوبه على الفور، أبقى على ما تحته من ملابس؛ صديري مخيط بإتقان، وبنطال أبيض خفيف.

أمسك منجله وقبل البدء في العمل لمح جاره ياسر يقترب منه، تأهب للقائه، حياه القادم، فاستقبله بحفاوة، جرت محاولات منهم للاقتراب من ذكر أحداث أمس، يحث كل منهما الآخر على البدء أولًا، فبدأ حسين بسذاجة! استغرب ياسر لمَّا علم أن زوجته غادرت البيت بعدما هدأتها النساء، ولم يشاهدها أحد وهي تغادر.

قال حسين مؤكدًا على كلامه:

- لابد وأنها ذهبت إلى أمها.

أجابه متأسفا:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ربنا يهديها.

- ربنا يخلصنا منها ونستريح.

- اهدأ وسوف تحل المشكلة.

- لقد استرحت منها.

ودعه بعد استجوابه وهو يضرب كفًا بكف، ويردد:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

وفي عصر هذا اليوم سار ياسر على الطريق الرئيس للقرية، قاصدًا بيت عبد الرازق والد إنتصار، ليصلح ذات البين.

استقبله عبد الرازق بشيء من الريبة، وبوجه يشوبه القلق، لكنه لم يتوانَ في الترحيب به دون كلل، لم يذكر الموضوع الذي جاء خصيصًا لأجله، ظل يتطرق لعدة أمور غير مهمة، ثم قال فجأة وبدون مقدمات:

- أين إنتصار؟ لا أراها!

تعجب من سؤاله، احتار حول المغزى منه، وبعد تردد لم يطل قال:

- في بيتها!

- هل عادت؟!

- عادت من أين؟!

- لقد تشاجرت مع حسين أمس وتركت البيت.

- ماذا تقول؟ أنت متأكد؟

- نعم.

- لم تأت إلى هنا!!

- كيف! لقد غادرت بعدما خلصتها من بين يديه.

بدا عبد الرازق غافلًا عما حدث، فاستبدت به الحيرة، وغمره القلق، أراد أن يستفسر عن الأمر بنفسه، فأسرع الخطى إلى بيت زوجها، يتبعه ياسر متعثرًا.

عندما دق باب البيت، كان حسين جالسًا على المقهى يتناول كوب شاي، ويتأمل المارة، طرق على الباب كثيرًا فلم يستجب أحد، سأل الجيران عنهما، تضاربت الأقوال، ولم يفده أحد، أخبرته إحدى المقربات أنها لم تر إنتصار اليوم كما اعتادت! متغيبة! أفزعه الرد بشدة، وزاده حيرة فوق حيرته، أطبق الخوف على صدره، وراودته أفكار مخيفة حول مصير ابنته الوحيدة، ظن أنها قد تكون ذهبت لتبيت عند أحد أقاربها، لكن من؟ أيعقل أن تكون عند أخيه فاروق؟ فهرع إليه لاهثًا بعدما ودعه ياسر.

أدركه وهو جالس بجوار ابنه خليل تحت شجرة توت، يستظلان من حر الشمس تحت أوراقها، ويستمتعان باستنشاق هواء بدا باردًا وسط يوم صيفي حار، أقبل عليهما بوجه مفزوع ينذر بكارثة، لما شاهداه أقبلا عليه يستفسران منه عما أصابه، أخبرهم بما حدث...انطلقوا جميعًا...كلٌّ في جهة بحثًا عن إنتصار أو زوجها الذي مازال بالمقهى، وفرغ لتوه من ارتشاف كوب الشاي، وضعه بجوار كوب الماء الذي لم يجف، بعد قليل مر عليه خليل وهو يلهث، فلما رآه اندفع نحوه مسرعًا بوجه عابس، وجبين مقطب، لم يمنحه وقتًا ليبدأ الحديث وقال:

- أين إنتصار؟

- ذهبت في داهية!

قذف في وجهه كوب الماء، صب عليه جام غضبه، ثم قاده من يده فانساق معه معترضًا في خنوع، دون مقاومة.

قاده لبيت عمه "عبد الرازق" وجده، وأبنائه الثلاثة، ووالده والجميع منتصبون أمامه، يدورون حول أنفسهم بقلق!! بادرهم خليل، أخبرهم أنه ينكر معرفته بمكان إنتصار.

كاد عبد الرازق أن يفتك به لولا أن فاروق منعه خشية إلحاق الأذى بنفسه، وقال مخاطبًا حسين:

- أين زوجتك؟

- لا أعلم، لقد غادرت أمس، ولم أرها بعد ذلك.

نظرت إليه العيون بريبة، تعالت الألسن بتكذيبه وقذفه، وهي تشير إليه بمزيد من الشك والاتهامات.

صرخ أخوها الأكبر في وجهه:

- أين هي أيها الكلب؟!

- لا أعلم، لست مسئولًا عن اختفائها.

- ومن المسئول؟!

صمت، ثم أردف قائلًا بجدية وعزم على فعل ما يقول:

- سأقتلك إن كنت آذيتها.

- أتتكاثرون علي! لم أفعل بها شيئًا، ولا أعلم مكانها.

حاول التملص منهم، فمنعه إخوتها، وأحكموا قبضتهم عليه، فأمرهم عمهم بتركه وشأنه، نظروا إليه معترضين، لكن لم يجرؤ أحدهم على التفوه بذلك تأدبًا معه، فتركوه يذهب.

غادر وهو ممتلئ بالحنق، والغيظ منهم، خاصة زوجته.

مرت عدة أيام على هذه الحادثة وإنتصار مختفية، اجتهد الجميع في البحث عنها عند أقاربهم، ومعارفهم، وأصدقائهم القدامى حتى أضناهم البحث، وهدهم الألم، ولم يتوصلوا لأي خبر عنها، فغاص الجميع في حزن عميق، وغضب ممتلئ بالشر.

لم يجدوا أمامهم غير زوجها يصبون عليه جام غضبهم، ويحملونه تبعة إخفاقهم، فاتهمه الأقارب الناقمون بخطفها، وربما قتلها، واختطفوه من داخل بيته، واقتادوه إلى مكان مجهول، عذبوه فنطق بكلمات قليلة لم تشفع له، ولم يجدوا فيها جواب أسئلتهم، لم يقتنعوا بصدقه، فكذبوه، وأهانوه، وعذبوه بأبشع الطرق، وعندما يئسوا منه، سلموه للشرطة، رحب بهذا القرار لأنه يعلم في قراره نفسه أنها لن ترتكب معه أقسى مما اقترفوه.

بعد التحقيق معه حول التهمة المنسوبة إليه لم يعترف بأكثر مما قاله من قبل، "لا أدري، لا أدري" لكنهم استمروا في حبسه.

اجتهد الجميع في البحث عنها، أقاربها، الأصدقاء، الجيران، والشرطة، ولم يسفر البحث عن جديد، كأنها تبخرت في الهواء، أو ذابت في الماء، فلا أثر لها على الإطلاق، ولم ترها عين.

ظلت كل الأطراف تصب الاتهام على رأس حسين، على الرغم من أنهم لم يعثروا على دليل يدينه، أو يؤكد مزاعمهم، بدا وسط كل هذا مستسلمًا لقدره، محبطًا مما ألم به بين ليلة وضحاها، سأل نفسه كثيرًا وهو جالس حائرًا تائهًا وسط ظلمة محبسه، ما الذي يحدث لي؟! متى ينتهي كل ذلك؟! متى تنقشع الغمة؟!

أخفقت الجهود في العثور على شيء بعد مرور عشرين يومًا منذ اختفائها، فبدأ اليأس يتسرب حثيثًا داخل القلوب، ويتقبلون الواقع الذي يدل على أنها قتلت، وتم مواراة جسدها بإتقان؛ لإخفاء معالم الجريمة.

مع ذلك تمسكوا بأمل واهٍ! وأعطوا أنفسهم فرصة أخيره قبل إعلان استسلامهم المشروط، ببدء البحث عنها مرة أخرى، إن ظهرت إشارات تدل على ظهورها.

***

أشرقت شمس أغسطس كأشد ما تكون حرقة منذ أكثر من عشرة أعوام، فمنعت بعض صيادي المنزلة من الخروج بمراكبهم للاصطياد، بينما سعى آخرون لكسب لزرقهم، ورزق أطفالهم.

***

لفت نظر أحدهم جسم غريب عالق بين أعواد الغاب الكثيفة، أصابه فضول لمعرفة ما يكون، وبعدما اقترب عدة أمتار، توقف مرتعدًا، لم يحتج للاقتراب أكثر؛ ليتبين أنها جثة فقدت ملامحها؛ أثر النقع الطويل في مياه البحيرة حتى التعفن، حيث فاحت منها رائحة كريهة لا تحتمل، فلم يجرؤ شخص على محاولة التعرف عليها.

في هذا المكان المنعزل؛ البعيد عن عيون الأمن، تتكرر الحوادث على فترات متباعدة، إلا أن هذه المرة بدت مختلفة، وأكثر ضجة، وجلبة للغضب الشعبي، علمت بها المذيعة عفاف عبد الصبور، فلم تتوانَ لحظة لاستغلالها، كي تظفر بخبطة إعلامية جديدة تحسب لها، وتضمها لسابقاتها، وهكذا حازت قضية إنتصار اهتمام مستويات المجتمع كافة.

أيقن الجميع أنها إنتصار دون دليل، أو على الأقل إلى أن يثبت العكس، مما أثار مزيدًا من السخط، والغضب على المتهم الرئيس والوحيد.

تم إرسال الجثة إلى الطبيب الشرعي لفحصها، وتحديد هويتها المجهولة، ولسوء حظ حسين، فقد راح الطبيب الشرعي يقضي إجازته في مدينة بورسعيد؛ مما أتاح بعض الوقت ليتلقى حسين مزيدًا من التعذيب، وتجرع الألم، والحزن على زوجته!

***

بعد أيام...وعلى باب قسم الشرطة، وقفت امرأة، وجهها ملطخ بألوان زينة رخيصة...يفوح منها عطر مقلد، تستفسر عن أمر ما من العسكري المكلف بالحراسة، بعدها توجهت مباشرة إلى الداخل، قاصدة مكتب المأمور، لاقت صعوبة في مقابلته، مع أنه متفرغ تمامًا، يقرأ مقالًا حول القضية نفسها في جريدة محلية، يذكره، ومدير الأمن بمزيد من الثناء والإطراء، ويعظم جهودهم في كشف ملابسات الحادث، بعدما فرغ من قراءته، تصفح الصفحات الباقية على عجل، ثم وافق على مقابلة المرأة التي رفضت الإفصاح عن سبب زيارتها.

- من أنتِ؟

- إنتصار.

ارتسمت على وجهه علامات الحيرة، والاستغراب، اعتدل في مقعده غير مصدق ما سمع، ثم قال:

- إنتصار من؟!

- التي اتهمتم زوجي بقتلي! أنا حية أمامك، ولم يؤذني.

صعق...انتابته صدمة قاسية، ذعرته التطورات المفاجئة التي غيرت مسار القضية لوجهة لم يتوقعها.

صرخ في وجهها:

- أين كنتِ؟

- عند أحدى صديقاتي في مدينة المنصورة.

صمت في غضب، ودَّ لو قام وصفعها بقسوة على وجهها المبهرج، وعذبها عذابًا أشد من المتهم، ولقنها درسًا لا تنساه!! الآن؟!! ماذا سيقول لمدير الأمن؟ هكذا حدث نفسه.

تمت إجراءات الإفراج عن حسين سريعًا، دون اعتذار، أو تظاهر بندم، أيقن بعدما حدث أنه فقد اعتباره لفترة قد تطول، وأن عودة الحياة مع زوجته مستحيلة، فطلقها فورًا.

كان هذا أول قرار حاسم يتخذه في حياته، جعله ينظر إلى مستقبله ببصيرة حادة، وبجدية وحزم دون خوف.

(١١)

الحالمة

وقفت نورهان حافية القدمين على بلاط مطبخها، تحس برودة الشتاء تتمايل داخل أناملها، عيونها شاردة غافلة عن باقي جسدها، وعقلها شارد في ملكوت غير الذي تعيش فيه، وروحها تتبعُه أينما حلّ، مثل ضرير يتبع عصاه التي يهشّ بها حصى الأرض، أعادت التفكير للمرة المائة في أمرها، لا أحمدَ منتبهٌ لها حتى تنتظره، ولا العريس المتقدم لخطبتها سيء فترفضه، حائرة بينهما، بين الوهم والواقع، متعبٌ قلبها من شدة الحب والخفقان المتسارع بدون فائدة، كضجيج مراوحَ تدور بغير منفعة، سوف تتوقف عندما يأكلها تتابع الأيام. تعلم أن أحمد تقاعس عن القيام بدوره، ورفض أن يكون الفارس الذي يمتطي صهوة أحلامها، ويحملها وينطلق بها زوجة مكرمة نحو بيته.

كل ما حلمت به هو زوج خلوق، يضعها فوق رأسه أيام الحزن، ويتحملها لحظات العتبى، ويقترب منها لحظات الخصام، ويوفر له أدوات السعادة، وتتحمله هي وقت الشدة والصُّرعة، حلمت بكل ما لا يقدر أحمد على تحقيقه في وقته الحاضر، وقد تخلت بعد رؤيته عن جزء من أحلامها؛ لتناسبه، وتقربت منه فابتعد. أحمق عبث بفؤادها دون دراية، بكت كثيرًا على شُرْفة حزنها الكبير حتى اقنعت قلبُها بالسلوى.

"مغفلٌ!" ختمت بها كل أحاديثها حوله، التي أصبحت مؤخرًا لا تتحدث إلا عنه، ويتضمنه قصدها المخفي عن عيون الناس.

"ليذهب حيث عاهرتَه!" نطَقتْها مستنفدة طاقة أوجاعها، وجروحَ روحٍ لا تندمل، لم تر معه أي فتاة قط! لكنها شعرت بوجود شبح فتاة غائبة تقف حائلًا بينهما.

قوتها التي أوتيت إياها بعد ضعفٍ أغرتها بالتوغل؛ لاكتشاف حقل ألغام العشق. ألغامُه لا تقتل ولا تذر، تبترُ جزءًا من الجسد، وتمحو جانبًا من الروح، وأجزاءً تبقيها متغيبة لن تعود يومًا؛ لتحضنَ باقيها المشتاق، وتدحضَ باطله. علقت وسط هذا الحقل الموهوم، وتوالت الألغام بالانفجار. أصبحت مصمتَة، استحالت كائنًا آخر يتحرك ولا يحزن، بدون ضحك يحرك ركودَه الساكن، لاحظ الكل تغيرها المفاجئ، ووقفوا عاجزين عن بلسمة وجعها، وهي كانت البلسم الشافي لكل أوجاعهم، والرحيق المزيل لهمومهم.

علمت منذ البادية أن أحمد لا يستحق، لكن زاولها أمل مزيف بتغير الواقع وفلْترته، أملٌ بقي معها حتى النهاية، وتخلّى عنها لتصطدم بواقع أليم.

يجب أن تقرر الآن أيَّهما ستختار، الشاب المتقدم لخطبتها؟ أم مزيدًا ومزيدًا من أوجاع وآلآم مستمرة، لا شفاء يُنجد الروح بعدها؟

اقترح أبوها بعدما تراءى له تذبذبها بين واقع يجهله وتفضّله، وبين أحلام تتمناها: أن تمسك ورقةً وقلمًا وتقارن بين مزايا وعيوب الاثنين. معادلة محسومة، ورهان أمه الخسران أخضعت أحمد له، مقارنة لا يصلح لها؛ فأحمد اليوم منتهٍ، استفادت منه فتاته الغائبة باستياء، وعلى نطاق سخطها الواسع، ثم تركتْه يجر خيبات إخفاقه بعدما لم يعد صالحًا للاستعمال. مقارنةٌ خاطئةٌ علمت نورهان نتيجتَها قبل الشروع في عدّ المزايا والعيوب على الورقة، وإحصاء خصال لم تعد تراها.

ملأت الورقة بأحلامها بالزواج من رجل بمثل حنان أبيها، لا يتخلّى عنها أبدًا مهما صرخت في وجهه وهي غاضبة. صنعت من ورقة أحلامها قصاصات صغيرة، وأودعتها حوض الغسيل، فسالت عليها المياه، فابتلعها الحوض؛ ليتداعى صرحُ أوهامها.

عزمت على صناعة بداية جديدة، تنسج خيوط حكاية أخرى أقل قتامة وأكثر فرحًا، تأكدت جاهزيتُها لمحو كل آثار الماضي المحفور في الأرض. صدعت بالنداء: "أبي"؟ قذفتْ كوبًا زجاجيًّا مغطى برغوة الصابون في الحوض غير آبهةٍ

به، وهمّت بالخروج من المطبخ عندما لم تلق استجابة، ارتطمتْ بوالدها لدى الباب، وأخبرتْه بموافقتها بملء قلبها، فقرّب أصابعه من شفتيها، وأمرها أن تخفض صوتها.

بعد أيام حضر الشاب المتأنق، المتألق في ملابس الخُطاب الذين تفتح لهم المجالس وتُزيّن، أعدت مشروب ليمون مصفّى ومحلّى بالسكر كربّةٍ للبيت، وكعروس بكر حملت الصينية وقدمتها للضيوف بخجل خِدرها، كثرت بعدها الابتسامات، والنظرات المسروقة، شعرت نورهان لوهلة أن عواطفها تجاه أحمد كانت مبالغة الحجم، وساعدها البعد على ذلك، وأشعل لهيبها الغياب.

في نهاية المطاف بلغتْ الراحة التي نشدتْها، وأحست بنسمات تَهَبُ روحَها روحًا تعيد فيها الحياة، وتكسو وجهها رونقه المعتاد، وتعيد لعينيها بريقهما المنكفئ، ولقلبها نبضَه المتّزن، فولجت الدنيا من بابٍ ملوّن مرصع بالأمل الصادق.

(١٢)

وضحاها؟

تقدم الليل، أَنْهَكَتْ قطرات المطر، وحبيبات الثلج المنهمرة بغزارة أسطح المنازل، وأسقف السيارات، وأرضية الشوارع، والحيوانات الضالة، المنتشرة في كل مكان.

غرقت القرية في ظلام دامس، فبعد انقطاع الكهرباء، وغياب القمر، لا يوجد ضوء يسطع، إلا خيوط عريضة من برق، بين الفينة والأخرى، تحولت أرضها الطينية إلى برك ضحلة، أما شارعها الذي يقسمها نصفين، فقد جرت المياه فيه كنهر شابٍّ يصارع للوصول إلى مصبه البعيد، مر على كلب بائس بفروه المبتل، وقد علق وسط البرد، والمطر، يلتصق بحائط بيت قديم؛ ليحتمي به، والمياه تقطر منه، أهل البيت سَلِمُوا بقدر ضئيل مما أصابه، فإمكانات مسكنهم لا توفر غير ذلك، بناء من الطوب الأبيض، معروش بخشب نخره السوس، وقش هش.

فتح بابه فجأة، خرجت منه سيدة تجاوزت الخمسين، ترتدي ملابس مهلهلة بالية، كشفت عن ساعديها وساقيها النحيلتين بقدر ضئيل يمنعها من الاتساخ، ثم مالت نحو الأسفل بجسدها؛ الذي مازال يحتفظ ببعض قوته، غمرت كلتا يديها بعجين الوحل، غرفت منه ما استطاعت، ووضعته حول عتبة بابها، تريد إحاطته به، فيما يشبه الجسر لتمنع تسرب المياه للداخل، بعدما تدفق علانية دون دعوة...وبعد عناء كبير...نجحت في مسعاها، فَرَدَتْ ظهرها، ورفعت صدرها لأعلى، استنشقت بعمق، وتنهدت بهدوء أجبرتها الظروف عليه، رفعت بصرها نحو السماء، ظلت تتأملها حتى جف ماؤها، خفضت بصرها بانكسار، فانزلقت قطرة مطر من على جبينها الرطب مرورًا بعينيها، اختفت وسط الماء الجاري.

لا أحد يشعر بمعاناتها وصبرها، فالكل نيام على فرشهم المريحة وسط الدفء.

اشتد تيار الهواء برودة، لم تأبه به، لم يُزعجها هزيم الرعد المخيف، ولا ظلام القرية الموحش، وظلال شوارعها الكئيبة المخيفة.

طالت وقفتها، صوت واهن متهدج، ينبعث من داخل حجرتها الوحيدة، يستغيث بها، إنه زوجها طريح الفراش، لبت النداء على عجل، وبرشاقة، إنها فتاة في العشرينات من عمرها، قطعت المسافة بخفة، لم يكن ينقصه شيء، فقط أراد رؤيتها أمامه، يريد أن يلقي عليها نظرة؛ ربما تكون الأخيرة، استلقت بجواره تطلب الدفء تحت غطاء مهترئ لا يملكان غيره.

تيارات الهواء تتجول في البيت بكامل حريتها، لا يمنعها مانع، تتسلل من كل مكان، وتلتقي بحجرتها المنطوية على أهلها، المعزولة عن باقي العالم، فتزيد قوتها، وتشتد البرودة، نفدت كل حيلها حيالها، لا يفيدها جسر من طين، شعرا بقسوة الطقس والوحشة، كادت أجسادهم تتجمد، بحثت عن شيء ينجيهم، عثرت على قطعة خشب يابس، أشعلت النار فيها، انتشر الدفء حولهم، فدنا منهم، وحاطهم بالحنان، فاسترخت أجسامهم المتعبة قليلًا.

- أنا جائع، حدثها زوجها.

- أجابته بود: سأجلب لك العشاء.

هبت من مكانها، غابت دقائق معدودة، ثم ظهرت تحمل كسرات خبز وقطعة جبن، وضعتها بجواره، ساعدته على الاضطجاع، اتكأ بظهره على الحائط، بدأ بتناول طعامه الذي بدا له أنه شهي، حثها على مشاركته، فأبت لأن الطعام لا يكفيه، تعللت بالشعور بالشبع، بعدما فرغ منه عاد إلى هيئته الأولى، نظرته بود مضاعف، أحاطته بالغطاء، غطته بذراعها، وصدرها لتحميه من البرد.

غطَّت في نوم عميق، خلاف زوجها الذي يستيقظ خلال الليل عدة مرات، ويظل يتحسسها في خشوع، وهي مغمضةُ العينين، يتذكر أيام شبابه وسنوات عمره الفتية، وكم كافحا سويًّا، ترعاه الآن وهو قعيد، برضى دون كلل أو ملل، فيخجل

من نفسه، يتمني الموت لتستريح منه، كانت تنهره عندما يتلفظ أمامها بخواطره، وتخبره أن رعايته محببة إليها...وهي صادقة!!

عند الفجر قامت من رقادها، توضأت، صلت ركعتين، دعت فيهما الله عز وجل بدعاء سري تدعوه به كل ليلة، لا يعلمه أحد، لكن الجميع يعلم أن الله سبحانه رحيم بعباده.

طلع الصباح بعيون آمنه، وسماء أكثر زرقة وصفاء، وشمس أكثر إشراقًا وحنانًا، وقفت أمام بيتها منتصبة القامة يحدوها أمل، لا تعرف مصدره! لكنها لم ترد العبوس في وجهه، أو إغضابه، خاصة عند الصباح، استعدت للانطلاق إلى العمل، شاهدت ما أفسدته أمطار الأمس، وبرك المياه المنتشرة...وقعت عيناها على طفل يحمل فوق ظهره حقيبته المدرسية، يقفز فوق الأحجار المرصوصة كأرنب بري، محاولًا تفادي البرك كي لا تتسخ ملابسه، أشعرها منظره بالسعادة، بينما يبتعد عنها، التفت فجأة نحوها كأنه يعرف أنها تتأمله، رمقها بنظرة ودٍّ وابتسامة، محت الحزن والألم داخلها، وضاعفت في قلبها الأمل.

(١٣)

حلم الهجرة

الظلام حالك، النجوم غائبة، ينتاب البحر هدوء حذر، ينذر بموج هائج يستعد في الأعماق، يشق المركب المتهالك طريقه وسطه بصعوبة بالغة، يكافح من أجل البقاء على صفحة المياه، يخنق دخان محركه الأجواء، ينبعث من نافذه ضيقة نور خافت لا يبين موقعهم، يضيئ البرق خطوطاً رفيعة في السماء مع صوت الرعد، فيزيد من رعب ووحشة المشهد، تزيد حمولته عن المائة وثلاثين راكباً، هاربين من حياتهم التعيسة إلى إيطاليا، حيث النعيم كما يتوقعون، تكوم الجميع على السطح رغم البرودة الشديدة، لا مكان آخر يذهبون إليه ليحتموا فيه، يشعرون برذاذ الماء وهو يلفح وجوههم، ويستنشقون رائحة الملح، أخذوا يتهامسون وسط الظلام، والخوف مما يتوقعونه حول جدوى رحلتهم المتهورة حد الانتحار.

نطق شاب نحيف منهم فكسر صمت الألسنة، وضجيج المحرك والبحر الذي بدأ موجه في الارتفاع ببطء، يبدو من ملامحه الحادة أنه من جنوب مصر، بزهو مدعياً الخبرة:

- إنها المرة الثالثة التي أحاول فيها العبور.

ارتفع صوت قلق متلجلج من بينهم ليعلن عن سؤال تبدو إجابته معروفة للجميع:

- ماذا حدث في المرات السابقة؟

جاءت من الجنوبي الإجابة بصوت مرتفع أيضاً:

- في المرة الأولى وصلنا إلى شاطئ ناءٍ، ركضت كل مجموعة منا في اتجاه مختلف، كنت سيئ الحظ، تم القبض عليّ بعد حوالي ساعة من الركض المضني، وتم احتجازي في معسكر للصليب الأحمر، فيه رأيت معظم من سافر معي على المركب، بعد أيام تم ترحيلنا إلى مصر لأبدأ في التخطيط للرحلة من جديد.

سأل نفس الشخص بتلهف من جديد، كاشفاً بذلك عن أنها المرة الأولى التي يسافر فيها:

- وماذا حدث في المرة الثانية؟

- كانت أكثر رعباً وعنفاً، بعدما أبحرنا تحت جنح الليل من منطقة مجهولة بمدينة رشيد على متن مركب صيد مضعضع، مما جعلنا ذلك لا نتفاءل بخير، ضربنا موج غاضب بعد مغادرتنا بقليل، ذيله له بأس وعنف، عمر المركب أقدم من أعمارنا فلم يصمد، وأبى ألا أن تتعطل دفتاه، لكن الله كان رؤوفاً بنا، فقد بدأ في الغرق قبل الابتعاد عن الشاطئ، والغوص في العمق، تشبثت بطوق نجاة وحيد لم يحظَ بغيره أحد، كافحت من أجل البقاء عائماً فوق صفحة المياه الباردة، وجدت أحدهم يكاد يبتلعه البحر، انتشلته، لم يتحمل الطوق وزننا فتركته له، سبحت بعدما رأيت نوراً يلوح لي في الأفق من بعيد، لم أطق صبراً، ظللت أسبح بقوة حتى وصلت الشاطئ منهك القوى، خائر البدن، استلقيت على ظهري من شدة التعب، وصدري يعلو وينخفض بشراسة، بعد مدة طويلة وجدت أحدهم عائماً فوق المياه، هرعت إليه لأساعده، لم نمتلك وقتا للراحة، وتدبر أمرنا، سمعنا صوتاً قادماً من وسط بساتين النخيل خلفنا، ثم خرج منها رجل يحمل بندقية بين يديه، وفوهتها الغاضبة مصوبة علينا، قال وهو متحفز للقتال، بلهجة صارمة، وعينين جاحظتين تنذر بالشر:

- من أنتم؟

قلت وأنا أحاول التقاط أنفاسي محاولاً استدراج عطفه علينا:

– كدنا نغرق في البحر.

هنا بلغ غضبه حده، وقال:

- كل فترة يظهر مجموعة من المتشردين يقولون أنقذنا كدنا نغرق! والله لأسلمنكم للشرطة.

ارتفع صوتنا بالتوسل ليرأف بحالنا، لكنه لم يظهرها، ظل وجهه جامداً، غاضباً، وقال:

- امشوا أمامي بالتي هي أحسن.

سرنا أمامه مظهرين الطاعة رهبة منه، مخبئين رغبة العصيان، حتى دخلنا منطقة مظلمة يحيطها النخيل من كل جانب، ركضنا بطاقتنا الضئيلة المتبقية، سمعت صوت عيار ناري، لابد أنه أطلق في الهواء لإخافتنا، لم أنظر ورائي، ظللت أركض وسط الحقول المغمورة بالماء حتى وصلت إلى طريق ترابي، لمحت خلفه حقلاً يتوسطه بيت ريفي، قصدته ورفيقي للاختباء خلفه، وتلمس بعض الراحة، عندما اقتربنا لقينا عنده شيخاً وقوراً، عرف من هيئتنا ومن الخوف الذي يعلو وجوهنا أننا في محنة عظيمة، استقبلنا عنده حتى الصباح، قدم لنا أثواباً نظيفة ارتديناها، وتخلصنا من ملابسنا المتسخة الممزقة، قدم لنا الطعام، وبعدما أكلنا بشراهة سألنا عن قصتنا، فقصصناها عليه دون تحريف، لما رأيناه من حسن ضيافته، وإخلاصه في مساعدتنا.

وقت البكور أيقظنا، ثم قال بنبرة هامسة بعثت توتراً في القلوب:

- يجب أن ترحلوا الآن، قبل أن يراكم أحد.

وقفنا منصاعين ولم نناقشه في الأمر، أعطانا مالاً كافياً لرحلة عودتنا إلى الديار، استقللنا سيارة أجرة إلى القاهرة، وهناك ودعت رفيقي، وركبت القطار المتجه إلى الصعيد.

النجوم غائبة، والقمر مقمور، مرت لحظات صمت رهيب على المركب بتثاقل مخيف، الجميع ساكن يتأمل خطر الرحلة التي ربما تنتهي بهم إلى موت محقق، قاطع ذلك صوت الجنوبي بنبرته الجهورة، قائلا:

- وما قصتك أنت؟

جاء صوت المهاجر الجديد متجلجلاً:

- اسمي عاطف، حاصل على دبلوم صناعة، والدبلوم في مصر لا يصلح لتحصل به على مهنة، أو لشيء غير تغير خانة المهنة في البطاقة الشخصية من طالب إلى حاصل على دبلوم، مثل الكثير من الشهادات الجامعية.

ونظر إلى الجنوبي، فأخفض رأسه تأسفاً؛ فهو يحمل شهادة جامعية

- كم تمنيت لو كنت تعلمت مهنة تنفعني الآن بدلاً من إضاعة سنوات من عمري في دراسة لا قيمة لها!

في يوم جمعة جلست على المقهى المجاور لبيتي، هواؤه خانق يشعرك بالكآبة، خاصة مع استمرار تصاعد أدخنة الشيشة، تسبب لي السعال ما دمت جالساً فيه، لكني أواصل التردد عليه.

دخل أصدقائي الثلاثة وأنا على هذه الحال، وأسارير الفرح بادية على وجوههم، التفوا حولي بالكراسي، بادرني أحدهم بقوله:

أخيرا وجدت الحل، هناك شخص سيساعدنا في السفر إلى إيطاليا.

- كيف؟ سألته بتهكم.

- تهريب، بالبحر.

- لكنه خطر جداً! ألم تسمع عن المراكب التي غرقت..

لم يمهلني وقتا لأكمل كلامي، وقال:

- لا تخف، أنا أعرف هذا الشخص جيداً، وناس كثيرة سافرت معه.

لم يكن كل هذا يشغل فكري، أردت التأكد من مدى صدقه، وإصراره الذي بدا لامعاً بين خطوط وجهه، وفوق سنه المكسور طرفها.

أصبح الكل متحمساً للسفر، طلبوا الشيشة جميعاً، أخذوا ينفثون الدخان في وجهي من فرط سعادتهم، فزاد سعالي الذي لم يتوقف منذ جلست، لكن أصابني حب تجربتها، أخذت نفسي الأول، ألهب جوفي كأني ابتلعت ناراً، احمرت عيناي

ودمعت، توقفت عندما أحسست بدوار انتابني، تراجعت بالكرسي للحائط، وأسندت رأسي عليه، ثم قلت:

- يجب أن تتوقفوا عن التدخين قبل السفر.

هزوا رؤوسهم جميعاً بالإيجاب، بطريقه أشعرتني بالريبة منهم.

- لكن خمسة وأربعون ألفاً مبلغ كبير جداً! كيف سندبره؟

قال اثنين منهم بصوت واحد، ونظر الثالث لي بعدها:

- سوف ندبره بأي طريقة!

عدت إلى المنزل مليئاً بالأمل، أتخيل الحياة الرغدة التي سأعيشها في إيطاليا، الحرية حد الانفلات، المال الكثير الذي سأنفقه حيث أشاء، لقيني أبي عند الباب بوجه متجهم وجبين قاطب محا الأمل داخلي، وبعث الوجل بدلاً منه، دعاني للدخول، لم أفاتحه بالأمر حتى لا يزيد حنقه علي، أخبرت أمي التي لم يعجبها السفر بهذه الطريقة الخطرة، لكنها وافقت على مسعاي بعد آخر محاولة لإقناعها، بنفس وجلة تخشى المخاطرة بحياة ابنها.

عندما أخبرت أبي بالأمر ارتجت أركان البيت من صوته الجهور، ظل يصب جام غضبه عليّ، وعلى أفكاري النيرة، لم أتمالك نفسي من شدة إحساسي بالخزي

والضعف، ردت عليه بصوت أعلى من صوته على مقياس الديسيبل، تركت البيت، وقضيت الليلة عند أحد أقاربي.

بعد فترة لم تطل اقتنع أبي بوجوب سفري، استدان من كل معارفه، ودبر المبلغ بشتى الطرق، وأصبحت معكم الآن.

- وأصحابك؟! سأل أحد أفراد الطاقم الذي ترك عمله وأنصت لهم.

- عجزوا عن تدبير المال!

الريح عاصف، تخل البحر عن حذره، وبدأ يبعث موجه الهائج بكثافة لظهر المركب، فأجبر الجميع على الاحتماء بين أيديهم وأرجلهم، والتشبث بأي شيء يجدونه أمامهم، الساحل الإيطالي يبعد عدة أميال، لكن المركب عاجز عن مواصلة الإبحار بخشبه التالف من قدمه، وكثرة أبحاره، لاح في الأفق غيم كثيف ينذر بالسوء، وأيقن الجميع أنهم غارقون لا محالة.

الموج أعلى من المركب بأمتار، يقذفه لأعلى فوق قمته المنحدرة، الرياح مستمرة في الهبوب، فبدأت ألواحه في التمزق، والتبعثر على سطح البحر الهائج، لا وجود لسترة أو قارب نجاة، بث المشهد الرعب بين الركاب المرتجفة قلوبهم، كافحوا لتأخير سقوطهم في المياه لأقصى مدة ممكنة لخوفهم من التجمد أو الغرق، الكل يتضرع إلى الله، يناجونه، يتوسلون إليه كي ينجيهم، يرددون أدعية بصوت عالٍ مختلط برعبهم الشديد من موتهم الأكيد.

تفتت أجزاء المركب ومحتوياته، غمرتهم المياه جميعاً، أيقنوا أنها النهاية التي كانت تنتظرهم منذ غادروا بر مصر بحثاً عن حلم الهجرة المميت.

قبل أن يغمض الجنوبي عينيه، ويفقد وعيه، رأي نوراً خافتاً ينبعث من قبالة السواحل الإيطالية، لا يدري هل هو ثابت أم يتحرك لأنه غير قادر على تمييز شيء غير طعم الملح ورائحة الموت.

بعد ظهر اليوم التالي لهذه الحادثة الأليمة، التي فقد فيها واحداً وخمسين شخصاً أرواحهم، فتح الجنوبي عينيه ليجد نفسه في معسكر الصليب الأحمر الذي بدأ يعتاد عليه، تغلب البعض على حزنهم وساعدهم ذلك حسن المعاملة والرعاية التي يتلقونها، حاولوا الهرب من المعسكر بعدما اعتدوا على الحراس غير المسلحين، استطاع اثنان منهم فقط الهرب إلى داخل الأراضي الإيطالية، ولم يفلح الباقون، ورحلوا عنوة إلى مصر بعد أيام قليلة.

***

داخل مكتب أحد جهات الشرطة، سأل الجنوبي الضابط الذي يجلس قبالته وسط كرسي مكتبه الفخم:

- لماذا لا ترفضون استلامنا، وتنقذونا من الفقر الذي نعيش فيه؟!

- مصر لا تترك أبناءها.

(١٤)

الإثم

ينسى الجلاد عيون ضحاياه؛ ليتجنب إيلام ضميره الأثن، كلما تراءت له تحديقات عيونهم المرتجفة؛ كي يستطيع النوم ليلًا دون مشاجرات تقلقه، وضحايا وعشاق "ريم" كُثُر، أهملتْ جانبهم، وأمِنَتْ ردود أفعالهم تجاهها، ولكل ضحية رد يختلف عن الآخرين، هناك من يرضى بواقعه ويرضخ له، ومنهم من يزأر رافضًا ما تعرّض له؛ انتصارًا لكرامته، ويثأر لإثبات حضوره المعتمِد على اعتقاد تميّزه.

اعتقدت ريم أن تزاحم العشاق حول دارها فألٌ حسن، فعملت على زيادة جمعهم، تترك أحدهم وتمضي متيقنةً أنه في صالة الانتظار يضع حقائب حُبِّه بجواره، ولن يغادر بدونها، وحيثما رجعت ستجده مكانه مقرفصًا على قدميه لم يبرحْه. ومن كثرتهم نسيت وجود أحدهم. "أدهم" عشيقٌ شَبِقٌ، اختبر لذة الحب مرارًا

حتى دأب عليها، نظر إلى ريم كصرح يصعب اختراقه، ولابد من اكتشاف جنباته الخفيَّة.

انتبهت ريم منذ البداية لنَزَقِه، ولقلبه المريض الطامع بها، فتعمّدت إثارته أكثر؛ لتُغيظه، وإشعال كلِّ فتيل؛ لتفجّر شهوته، استمتعتْ بعذابه، وهي تُمنِّيه بمشيتها الراقصة، ونظراتها التي تَعِدُه بالمتعة ولا تمنحه إياها. وعيناها البريئتان الناضجتان ترويان له ما فيها من غزارة المتعة، وإغراءٍ بالاقتراب والطمع في المزيد، واستعدادها لتلقي المتعة بكل عمقِ اللحظة. ورغم تمنُّعها، وعدم خضوعها له، فإنه قد أخطأ تقدير الموقف وتمادى.

ذات يوم غائم حضر وقت القيلولة، ولا أحد يوجد معها في البيت غير أمها المنهكة في طهي طعام الغداء، فارتدت ريم ثوبًا ضيّقًا على عريها، يحجِّم الخصر؛ لإبراز محاسن جسدها الفاتن، وخرجت تستقبله. تشعر بقيمتها في عيونه، وبأنها مشتهاه، وكل الأشياء التي تبهجها، وتشعرها أنها فتاة حسناء يحبها الجميع، ولتلتقط الرغبات الباقية من عيون غيره.

مرت بالقرب منه، ومالت بجسدها؛ كي تلتقط شيئًا وقع منها سلفًا قبل قدومه وأهملته، فقد السيطرة على تحكمه في نفسه، واحتضنها من الخلف، حاولت التملص منه برفق، واستدارت إليه موجهةً صفعةً قويةً على وجهه؛ كي يعيد الكرّة لاحقًا بأسلوب أفضل، وغادرت لغرفتها وتركته مضطجعًا على نيران شوقه المتَّقد، وقد علا اللهيب؛ منذرًا بسوء قد يحرق الأخضر واليابس.

***

لم يستطع أدهم خشوعًا، ولا توبةً، استطلعَ هلالَ لذته وصامَ عن فراق ريم، كان يبتلع المخدرات مبكرا؛ ليسري مفعولٌ في جسده يحبّذُه، الآن ابتلعَ قرصًا وأتبعَه بآخر ؛ لينسيَه همّه، فلم ينس. تخيّلَ ريم تسبَحُ معه بوداعةٍ وسط النباتات، وتتعرَّى وهي تدعوه بفجور بالدنوّ منها، وفَكِّ ضفائرها الملتوية، ثم وهي تستلقي فاردةً ذراعيها إليه؛ كي يتلقَّى المتعة التي يحلم بها، فقطع شوطًا مجهدًا عند جذوع النباتات، ثم حملها وأخذها إلى فراشه، ليكمل ما بدأه بعاطفة مضاعفة.

استبدَّت به خيالاته الحالمة، وتوالت عليه بكثافة دون انقطاع، فحملتْه قدماه وشعوره برضاها المستكين عنه إلى حيطان بيتها، راح يبحث عن ثغرة يدسّ فيها عينيه؛ لتطل على عريّها مباشرة، كي يشاهدها وحيدة هائمة به. قبل دنوه من حلمه حدَّث نفسه: بأنها تحبُّه لكنها خجلى، فتاة مهذّبة، ولولا صفعتها يوم تطاوله عليها؛ لمقتها، وصغرت في نظره المشوّش، منَّى نفسه بأمانٍ واهمةٍ تشبه خيالاته. لامس حائط حجرتها، ولم يجد ثغرته المنشودة، ولم يستطع الولوج للداخل، وعجز عن رؤية شيء غير خياله المريض، رجع لمسكنه، وأودع جسده غرفته ولم يبرْحها.

استجمع قواه وتخيَّلها مستلقيةً بفراشها، تحترق شوقًا للقائه، فيفاجئُها بحضوره الأخّاذ، فتفرح بلقياه، وتقفز في أحضانه! خيالاتُ مراهقةٍ نشطةٍ، وجدت من يُفلت جماحها، والأقراص المخدِّرة تغذِّى خيالاته المراهقة، وتلهمُها الفسوق،

فعاش يحلم بريم ليل نهار، يراها ساعة صحوه وغفوته، وفي الأوقات الأخرى تحضر إليه.

أصبحت ريم كل أحلامه، وانبثقت أمامه، محوّلة طموحه في الحياة إلى الفوز بمضاجعة مستترة، تختبئ تحت شعور وهميٍّ بحبها، بينما هي في الحقيقة لم تستجب لكل إغوائه، وحقّرت نزواته، فلم تُعرْه اهتمامًا يذكر، عاملته كنكرة لا يستحق التقدير. وبجوفه عاصفة هوجاء لا يمكن إغفال قوتها.

راقبها باستمرار على الدوام، وحفظ تحركاتها الثابتة، تغادر صباح أيام الأحد والثلاثاء والخميس للجامعة، وتقبع في البيت باقي الأيام، وزيارات نادرة لحقل أبيها مواسم انشغال عائلتها بالعمل في الحقل؛ لإمداد بطونهم الجائعة بغداء يسد جوعهم مؤقتًا.

ذات ظهيرة نهار مشمس مُنع فيه المطر، خرجت ريم إلى الحقل كما أُمِرت؛ لتلحق بأهلها. والدها الناتئة عظامه من دأبه على العمل طوال حياته، وأمها المستكينة تحت ظل شجرة توت، وإخوانها الجياع الذين يقطر من مسامّ جسدهم عرَقٌ كريهٌ. لا أحد على الطريق، القرية تغطُّ في سبات قيلولة سوف تطول، واختفت الحُمُر، وانزوت العصافير فوق أغصان الشجر المثمر، تراقب المحيط بحذر.

ترتدي ريم ثوبًا قرمزيًّا، تسير به كأن زهور الربيع متفتحةٌ حولها، وتستنشق شذا عطرها الفواح، أو كأنها تتخيل نفسها تسير على شاطئ جميل بتبختر وزهو، تمنّت فعلا التجوّل على ظهر شاطئِ جزيرةٍ مشهورة بجمالها الخلاب، وغرقت في رعدة التفكير. لم تنتبه لوقع خطوات أدهم القريبة منها، وهي تتبعها سرًّا بقدمين وجلتين تتوخّى العيونَ والآذان، وقد تخلّي صاحبُها عن رشده، وتمسّك بأقراصه المخدرة، وأشياء أخرى ألهتْ عقلَه، ونفخته بخيالاته المصاحبة، ومنَّت قلبه المريض بتحقيقها.

الطريق من البيت إلى الحقل طويل، يحتوي على عشرات الأمكنة الصالحة لضيافةٍ نَزِقةٍ، فكّر أدهم في كوخ عمه الذي يقبع مثل: كلب حراسة على مقدمة حقله، أو زريبة البهائم المقامة على الجانب الأيسر قبل الانعطاف.

قبل أن يتراءى لريم حقل أبيها بعيدًا قرر إدراكَها، ثم تُحلُّ البقية تباعًا كما يحلو لها! قطع مزيدًا من الأمتار بشكل أسرع؛ لتقليل المسافة الفاصلة بينهما، وتحيُّن فرصةٍ مناسبةٍ لإدهاشها بوجهه؛ فتنقض عليه مثل عاشقة مشتاقة لحضن عشيقها!

لاح ظلُّه لها من بعيد، فأكثرت من التفاتها للوراء؛ لتتأكد من ظنونها، فمُلئ قلبُها رعبًا وخيفةً، وفكَّرت بالعدْو هربًا، لكنه كان قد اقترب إلى الحد الذي يصعب الفرار منه، ارتجفت وأرادت الصراخ، لكن ليس هناك ما يلوح في الأفق؛ لينقذها من براثنه المتوثبة للانقضاض على فريستها. وحيدةٌ ولا أحد بالجوار، فقررت

مجاراته في ظنونه بها إلى أن تصل إلى بَرٍّ ينجيها من حماقة قد يرتكبها، وأن تتغافل ما يشغل فكره؛ كي تشعر بالاطمئنان.

وارت خوفها وابتسمت عند اقترابه، علمت أنه ليس في وعيه، وفطنت لرغبته المحمومة، بياض عيونه استحال احمرارًا من أثر اشتهاءٍ لم يحصل عليه، جوعى تريد التهام جسدها كما تلتهم الضواري فرائسها. رأت عزمه على اقتناصها والمضيَّ بعجلة دون اكتراث، فزاد توجسها منه خيفة.

أبصر أدهم قبل إلقاء السلام عليها انحناءات جسدها بجرأة غير معهودة، وبلا خجل يروِّضها، فازدادت رغبتها بالصراخ والهرب إلى معزل آمن، يحميها من مخالب عيونه الجارحة.

حياها بنفس النَّهم السابق، فاستقبلته بودّ محدث، ظن أنها ستنساق مع تمنُّعٍ خفيف يُظهر حياءها، ويزيد متعة اللحظة والرغبة، قبل رضوخها للذي يهواه. اقترب كوخُ عمه، ولم يعد يفصل بينهم وبينه إلا أمتار قليلة، أصبحت كلماته حميميّة تحمل مغزاه، تجاهلت ريم كل تلميحاته الصفيقة، وتظاهرت بالبلاهة، كانت دوما تقنع الآخرين بأدائها المسرحي، لكنها لم تخدع أدهم، فلا وقت كاف لديه لعَبثِها، ولا يرى غير ما يصوره قلبه المريض؛ مما أغراه بالتمادي في غيّه.

عند طرف الكوخ الغربي، سألها: إذا كانت تحب الراحة قليلًا من عناء الطريق داخل الكوخ؟ رفضت بودّ، شعرت أن العاصفة زالت؛ لتحل الكارثة، نفضت ما

في يدها، وبدأت العدو، لحق بها، وأوقعها بين براثنه قبل ابتعادها بمهارة نمرٍ انقضّ على ظهر فريسته من خلف إحدى الأشجار، حملها وهي تصرخ ولا أحد بالجوار! جرّها إلى الكوخ وهو متيقن أنه مهجور، ومحيطه خال من الرقباء، ركلتْه في بطنه وتوالت لكماتها على وجهه ورأسه، وعلا صراخها وتضاعف أضعافًا مضاعفة، حاول إسكاتها وتكميم فمها، فبصقت عليه وسبّته. مُلئ حقدًا وحنقًا عليها لا يطفئه غير إخضاعها لرغباته النجسة. ظلت تصارع نهايتها، وهو يقبّل عنقها الباردة. أهدتها عزيمتها قوة طارئة؛ فدفعته بقدميها للوراء، وحاولت الفرار، فاعترض الباب وأوقعها أرضًا.

يدٌ تقود معركة إحكامها بثقل جسده، ويدٌ تُكمِّم فاهها، وتتجلّد في مواجهة قرن أنيابها التي تعضُّ بشراسة. أمسك نصلًا حادًّا وجده معلقًا على حائط الكوخ تحت ستار وساوسه، وطعنها به في خصرها الذي تمنَّى كثيرًا نهش حمرته المشبعة بالبياض، وتلمُّسَ نعومتِه. خفتتْ قوتها، وضعف صوتها، ووهن تمردُها؛ فاستسلمت لأصابعه الشغوفة بالتطلع لمعالم جسدها الذي يجهله، ويحلم باكتشاف مجاهله، لم يتساقط كل دمعها بعد، داهمتها ثورة عابرة، وقامت قومتها الأخيرة، قاومته بكل ما تبقى لها من قوة باقية لا تغني شيئًا، لم يعد يجهل كيف يخمد تمردها ويعيدها إلى الاستكانة؟ طعنها ثانية؛ فاخترق النصل حاجز معدتها، ثم تمسّك بصدرها كأنه لن يتخلى عنه أبدًا، وراح يمارس أحلامه حقيقة، ويحقق خياله المريض.

استحال إغواؤها إلى ذهول وارتعاد، لم تتخيل يومًا أن نهايتها تماثل ظبيةً يُفترس لحمها في العراء بأنياب حيوان جائع، ولعنتْ كل ماضيها القذر معه وتبرأت منه. تحول الجلّاد إلى ضحية، وأحسَّ السياط تنهال عليه لا تأخذ به شفقة ولا رحمة.

امتدّت يداه لكل أغوار جسدها، وريم تحاول طرده في نزاع الموت، ترفض نهايةً كتلك، واحتضار عمرها عن حياة لم تحقق فيها مبتغاها، تداعتْ أحلامها صرعى، أصبحت مركزة على الفرار من الموت، وهل للفريسة من فرار بعد اختراق الأنياب للحمها، وسيلان الدم من أوردة عنقها الذبيح؟!

شاهدتْ خيوط الدم تنفر مبتعدة تجاه باب الكوخ؛ لتستنجد بأشخاص لن يمروا من هنا، بتأنٍّ وتجلّدٍ تجمّد بصرها الزائغ على طرف دمها المتدفق، وضعت كل آمالها على أكتاف دمها؛ ليطلب النجدة لها، توقف الدم عند عتبة الكوخ ولم يتجاوزه، كانت خائبة الرجاء، وآمال نجدتها تحتضر، تعلم أن نجاتها أصبحت مستحيلةً، وتخلُّصَها من الجسد الجاثم فوقها شعوذةُ خرافةٍ!

لن تتخلّص من الموت الملتصق بها، والخدَرُ يغزو أطرافها، وتشعر أنها ابتعدت عنها مئات الأميال. فقدت القدرة على تحريك قدميها، شعور الفقد يسري من أسفلها إلى أعلاها، وبدأ يتجاوز خصرها الذي طالما تباهت به، وفتنت به الجميع، سوف تموت لا محالة، فكّرت في ذلك كاحتمال قائم، ولكنها تعلّقت بكل الأحبال الوهمية وخيوط العنكبوت المعشعشة بسقف الكوخ، وحلمت بالنجاة.

تذكَّرتْ أنها تقبع تحت كائن انتهازي، يرتشف رحيقَها دون ارتواء، وتذكّرت يدها الغائبة، فحاولت تحريك دفتها؛ لدفع الألم بعيدًا، فشاهدت وهي تغيب أن ظلال يدها لم تكن لتردع أحدًا.

أفرغ أدهم شهوته سريعًا فأحس أنه تعرض للاحتيال! كل تلك الجلبة والصخب وهذا العناء من أجل دقائق لذةٍ زالت؟! أبصر جسدَها الملقى أرضًا كجذع شجرة ينخره السوس، وتغيُّرَ لونها، واستحالةَ بياض حمرتها إلى زرقة. لم يمنعه وجهها المعتم؛ لانطفاء حيويته، من المحاولة من جديد، قبّلها، عانقها بشغف أشد من التجربة الأولى، لم يحس برغبة، خاطبها "ريم حان الوقت.." كانت قد فارقت الحياة! لكنه بدأ، ناسيًا أي طارئ يحول بينه وبين غنيمته الثمينة التي حصل عليها بجهده، ولن يتخلّى عنها بسهولة فور انتهائه منها، ربما يحنّطها ويحتفظ بها إلى الأبد في مكان آمن، دون ارتعاد أو مهابة من أهلها!

أعاد الكرة! ثم نظر للأجفان المرتخية، وتحديق بؤبؤ عينها الجامدة، ووجهٍ شاحبٍ معتمٍ، كتفاها وضلوعها متيبّسة، تتحرك في أحشائها بكتريا الدم والروث، أسراب الذباب تحوم فوقها في كتل متماوجة. ارتجفَ مثل فأرٍ خائف، فخان حلمَه بالاحتفاظ بها محنطةً فوق سريره، وهرب خارج الكوخ، هرع إلى الطريق الطويل يداري ارتعاد أجفانه، وجبنَه أمام جثة حبيبته الميتة، تلفّت حوله فلم يشاهده أحد وهو يعدو، فظن أنه لن يُقدر عليه.

قابل أمَّه منتصف الدار، لمحت ببرودٍ خوفَه التي وشت به عيناه، ونظراته الشاردة المتوجسة خيفة، وارتعاد فرائصه، وملابسَه المضرجة بالدم والطين، والمشوبة بسائلٍ لزجٍ، فخاطبته: "أفعلتْها؟!" وتوقّفت طويلًا بلا حراك، بوجه جامد كتمثالٍ خشبيّ تُرك وسط الصقيع. تعقل كيف تتفادى غوغاء ما فعله ابنها إلى حين خفوت العاصفة وركودها الطويل، وإصلاح التصدّع الذي أصاب سد أسرتها المنيع في القلب.

أجريت الشرطة تحقيقات حول هذه الحادثة، من اليوم الأول تم الاشتباه في أدهم، لاضطرابه الشديد، وتصرفاته الغريبة بعد الحادثة، ووجود جروح على وجهه ويده، فتم تفتيش بيته بعد آذن من النيابة، عثر على سلاح الجريمة، فقبض عليه، في التحقيقات اعترف بكل شيء، ومثل الجريمة أمام رجال الشرطة والنيابة، وهو الآن ينتظر القصاص منه.